سورة الأعراف
بسم الله الرحمن الرحيم
المص (١) كتب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه
لتنذر به وذكرى للمؤمنين (٢) اتبعوا ما أنزل إليكم
من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون (٣)
وكم من قرية أهلكنها فجاءها بأسنا بيتا أو هم قائلون
(٤) فما كان دعوىهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا
ظلمين (٥) فلنسئلن الذين أرسل إليهم ولنسئلن
المرسلين (٦) فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين (٧)
والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موزينه فأولئك هم
المفلحون (٨) ومن خفت موزينه فأولئك الذين خسروا
أنفسهم بما كانوا بآيتنا يظلمون (٩) ولقد مكنكم
فى الأرض وجعلنا لكم فيها معيش قليلا ما تشكرون (١٠)
ولقد خلقنكم ثم صورنكم ثم قلنا للملئكة اسجدوا
لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من السجدين (١١)
١٥١

سورة الأعراف

معانى الكلمات :

حرج منه : ضيق من تبليغه خشية أن يكذبوك . **بأسنا** : عذابنا . **بياتاً** : ليلاً وهم نائمون . **قائلون** : مستريحون نصف النهار « القيلولة » . **دعواهم** : دعاؤهم وتضرعهم . **مكناكم** : جعلنا لكم مكانًا وقرارًا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن ندرك وظيفة الدين فى الحياة .

٢ ـ أن نوقن بسنن الله فى الكون وفاعليتها فى الحياة .

٣ ـ أن نستشعر المسؤولية أمام الله عز وجل ـ يوم القيامة .

٤ ـ أن نشكر الله على جزيل نعمه وعظيم إحسانه .

المحتوى التربوى :

بدأت هذه السورة بالحروف المعجزة ، التى تشير فى دلالة واضحة على أن هذا القرآن ليس من صنع البشر ، فقد كانت أمامهم الأحرف والكلمات التى صيغ منها ، فلم يستطيعوا أن يصوغوا منها قرآنا مثله ويبدأ السياق بتقرير حقيقة هامة ، وهى أن هذا القرآن كتاب أنزل للنبى ﷺ للإنذار به والتذكير ، كتاب للصدع بما فيه من الحق ولمواجهة الناس بها لا يحبون ؛ ولمجابهة عقائد وتقاليد وارتباطات ؛ ولمعارضة نظم وأوضاع ومجتمعات ، فالحرج فى طريقه كثير، والمشقة فى الإنذار به قائمة .

لقد جاء هذا الدين ليغير وجه العالم ، وليقيم عالماً آخر ، يقر فيه سلطان الله وحده ، ويبطل سلطان الطواغيت ، عالماً يعبد فيه الله وحده ـ بمعنى « العبادة » الشامل ـ ولا يعبد معه أحد من العبيد . عالماً يخرج الله فيه ـ من شاء ـ من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . عالماً يولد فيه « الإنسان » الحر الكريم النظيف ، المتحرر من شهوته وهواه ، تحرره من العبودية لغير الله .

جاء هذا الدين ليقيم قاعدة : « أشهد أن لا إله إلا الله » التى جاء بها كل نبى إلى قومه على مدار التاريخ البشرى ، وشهادة أن لا إله إلا الله ليس لها مدلول إلا أن تكون الحاكمية العليا لله فى

حياة البشر ، كما أن له الحاكمية العليا فى نظام الكون سواء ، فهو المتحكم فى الكون والعباد بقضائه وقدره ، وهو المتحكم فى حياة العباد بمنهجه وشريعته ، وبناء على هذه القاعدة لا يعتقد المسلم أن لله شريكاً فى خلق الكون وتدبيره وتصريفه ؛ ولا يتقدم المسلم بالشعائر التعبدية إلا لله وحده ، ولا يتلقى الشرائع والقوانين ، والقيم والموازين والعقائد والتصورات إلا من الله ، ولا يسمح لطاغوت من العبيد أن يدعى حق الحاكمية فى شىء من هذا كله مع الله .

وفى الوقت الذى وجه الله ـ سبحانه ـ هذا التكليف إلى رسوله ﷺ ، وجه إلى قومه المخاطبين بهذا القرآن أول مرة الأمر باتباع ما أنزل فى هذا الكتاب والنهى عن اتباع الأولياء من دون الله .

ولأن هذا التغيير المطلوب أمر عظيم يعرض السياق مصارع الغابرين من المكذبين فى الدنيا ومصائرهم كذلك فى الآخرة فهى خير مذكر ، وخير منذر ، والقرى التى أهلكت بسبب تكذيبها كثيرة . أهلكت وهى غارة غافلة ، فى الليل وفى ساعة القيلولة حيث يسترخى الناس للنوم ويستسلمون للأمن ، ولم يكن لهؤلاء المأخوذين فى غرتهم إلا الاعتراف ! ولم يكن لهم دعوى يدعونها إلا الإقرار !

والإنسان يدعى كل شىء إلا الاعتراف والإقرار ! ولكنهم فى موقف لا يملكون أن يدعوا إلا هذه الدعوة ! ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ .

وينتقل السياق من هذا المشهد المعروض فى الدنيا إلى ساحة الآخرة بلا توقف ولا فاصل؛ ليلحق عذاب الدنيا بعذاب الآخرة ؛ فإذا وقف هؤلاء الذين تعرضوا لبأس الله فى هذه الأرض وقفتهم هناك للسؤال والحساب والجزاء، فإنه لا يكتفى باعترافهم ذاك حين واجهوا بأس الله الذى أخذهم وهم غافلون : ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ ولكنه السؤال والتشهير بهم على الملأ الحاشد فى ذلك اليوم المشهود ؛ حيث يسأل الذين جاءهم الرسل فيعترفون ، ويسأل الرسل فيجيبون .

ثم يقص عليهم العليم الخبير كل شىء أحصاه الله ونسوه ! يقصه عليهم ـ سبحانه ـ بعلم فقد كان حاضرًا كل شىء . وما كان ـ سبحانه ـ غائباً عن شىء ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ﴾ فلا مجال للمغالطة فى الوزن ؛ ولا التلبيس فى الحكم ؛ ولا الجدل الذى يذهب بصحة الأحكام أو تبدل الموازين .

﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ فقد ثقلت فى ميزان الله الذى يزن بالحق . وجزاؤها إذن هو الفلاح ، وأى فلاح بعد النجاة من النار ، والعودة إلى الجنة فى نهاية الرحلة المديدة : ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا ﴾ ، كانوا بآياتنا يظلمون فقد خفت فى ميزان الله الذى لا يظلم ولا يخطىء . وقد خسروا أنفسهم فماذا يكسبون بعد ؟ إن المرء ليحاول أن يجمع نفسه فإذا خسر ذات نفسه فما الذى يبقى له ؟

وبعد هذا المشهد المصور من ساحة الآخرة ، يبدأ السياق يقص بداية الرحلة الكبرى ، والتى يمهد لها بتمكين الله للجنس البشرى فى الأرض ، كحقيقة مطلقة ، وذلك قبل أن تبدأ قصة البشرية تفصيلاً .

والله عز وجل هو الذى خلق الأرض والناس ، وهو الذى جعل الأرض مقرًا صالحًا لنشأته وهو الذى أودع فى هذه الأرض من الأقوات والأرزاق ما يسمح بنشأة الإنسان وحياته ، وهو الذى نصبه سيد هذه المخلوقات جميعًا فى هذه الأرض ، وأعطاه القدرة على تطويعها واستخدامها .

إن الإنسان هو ابن هذه الأرض ، وربيب هذا الكون ، لقد أنشأه الله من هذه الأرض ، ومكنه فيها ، وجعل له فيها أرزاقًا ومعايش ، ولكن الناس قليلاً ما يشكرون .

بعد ذلك تبدأ القصة بأحداثها المثيرة ، تبدأ بإعلان ميلاد الإنسان فى احتفال مهيب فى رحاب الملأ الأعلى ، يعلنه الملك ، زيادة فى الحفاوة والتكريم ، وتحتشد له الملائكة وفى زمرتهم وإن لم يكن منهم إبليس ـ وتشهده السموات والأرض ؛ وما خلق الله من شىء ، إنه أمر هائل وحدث عظيم فى تاريخ هذا الوجود .

وبعد هذا الإعلان عن ميلاد الإنسان من الذات العلية أمر الملائكة بالسجود لآدم ، فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ، وإلى هنا تتمثل كرامة هذا الكائن الإنسانى على الله ، كما تتمثل الطاعة المطلقة فى ذلك الخلق المسمى بالملائكة من عباد الله ، وأما إبليس فقد امتنع عن تنفيذ أمر الله ـ سبحانه ـ وعصاه وسنعلم : ما الذى حاك فى صدره فيما يلى من السياق .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ سنن الله فى الكون لا تتبدل ولا تتغير ، وهو قادر على عقاب المكذبين إلى يوم الدين .

٢ ـ فى يوم القيامة يسأل الله الأمم عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به ، ويسأل الرسل أيضاً عن إبلاغ رسالاته .

٣ ـ كل راع مسؤول عن رعيته وسيسأل عما استرعاه الله من رعية .

٤ ـ صحائف الأعمال توزن يوم القيامة بميزان له لسان وكفتان لينظر إليه الخلائق إظهار للعدل ، وقطعاً للمعذرة ، كما يُسأل الإنسان عن عمله فتعترف جوارحه .

٥ ـ نعم الله علينا كثيرة ، وقد مَنَّ الله وشرفنا بأن خلقنا فى أحسن صورة ، وأسجد لأبينا آدم الملائكة ، وهيأ لنا أسباب الحياة على الأرض ، وسخر لنا كل شىء فعلينا شكر المنعم بما أنعم .

قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار
وخلقته من طين (١٢) قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر
فيها فاخرج إنك من الصاغرين (١٣) قال أنظرني إلى يوم يبعثون
(١٤) قال إنك من المنظرين (١٥) قال فبما أغويتني لأقعدن لهم
صراطك المستقيم (١٦) ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم
وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين (١٧) قال
اخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم
أجمعين (١٨) ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث
شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين (١٩) فوسوس
لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما وقال
ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا
من الخالدين (٢٠) وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين (٢١)
فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا
يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما
عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين (٢٢)

١٥٢

معانى الكلمات :

ما منعك : ما دعاك وحملك .

الصاغرين : الأذلاء المهانين .

أنظرنى:أمهلنى فى الحياة.

المنظرين : الممهلين إلى وقت النفخة الأولى

فبما أغويتنى : فبما أضللتنى .

مذؤوما : محقرًا لعينًا .

مدحوراً : مطرودًا مبعدًا .

ما وُورِى عنهما : ما ستر وخفى .

سوءاتهما : عوراتهما .

قاسمهما : حلف لهما.

فدلاهما :فأنزلهما عن مرتبة الطاعة بخداع .

طفقا يخصفان : شرعا يلزقان .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم قدر الإنسان عند الله، وتكريمه له ، وحفاوته به .

٢ ـ أن نعلم طبيعة المعركة والصراع بين بنى آدم والشيطان .

٣ ـ أن ندرك جدية المعركة مع الشيطان وأصالتها واستمرارها وضراوتها .

٤ ـ أن نعلم عاقبة الكبر فى الآخرة وفضيلة التواضع فى الدنيا والآخرة .

٥ ـ أن نعلم أن المعصية سبب كشف العورات والحسنة من أسباب الستر .

المحتوى التربوى :

يستأنف السياق أحداث قصة الخليقة فى بدايتها الأولى ، ويصور فى مشهد ثلاثة نماذج من خلق الله : نموذج الطاعة المطلقة والتسليم العميق (الملائكة) ، ونموذج العصيان المطلق ، والاستكبار المقيت (إبليس) ، ونموذج الطبيعة المزدوجة (الإنسان) .

والذى منع إبليس من السجود أنه جعل لنفسه رأيا مع النص ، وجعل لنفسه حقًا فى أن يحكم لنفسه وفق ما يرى هو من سبب وعلة مع وجود الأمر ، والأصل كما يقول صاحب

الظلال :وحين يوجد النص القاطع والأمر الجازم ينقطع النظر ، ويبطل التفكر ، وتتعين الطاعة، ويتحتم التنفيذ .

لذا طرد من الجنة ، وطرد من رحمة الله ، وكُتب عليه الصغار ، ولكن الشرير العنيد لا ينسى أن آدم هو سبب الطرد والغضب ؛ ولا يستسلم لمصيره البائس دون أن ينتقم . ثم ليؤدى وظيفته وفق طبيعة الشر التى تمخضت فيه ﴿ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ ... الآية ويتضح هنا الإصرار المطلق على الشر ، والتصميم المُطلق على الغواية ، لقد سأل إبليس ربه أن ينظره إلى يوم البعث ، وبعدها أعلن فى تبجح خبيث ـ وقد حصل على قضاء بالبقاء الطويل ـ أنه سيرد على تقدير الله له الغواية وإنزالها به ، بسبب معصيته وتبجحه ؛ بأن يغوى ذلك المخلوق الذى كرمه الله ، والذى بسببه كانت مأساة إبليس ولعنه وطرده .

أقسم أنه سيقعد لآدم وذريته على صراط الله المستقيم ، يصد عنه كل من يهم منهم باجتيازه ـ والطريق إلى الله لا يمكن أن يكون حسّا ، فالله سبحانه جلّ عن التحيز ، فهو إذن طريق الإيمان والطاعات المؤدى إلى رضا الله ـ وإنه سيأتى البشر من كل ناحية ﴿ مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ﴾ للحيلولة بينهم وبين الإيمان والطاعة وهو مشهد حى شاخص متحرك لإطباق إبليس على البشر فى محاولته الدائبة لإغوائهم ، فلا يعرفون الله ولا يشكرونه . اللهم إلا القليل الذى يستجيب ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴾ .

يقول صاحب الظلال : لقد أجيب إبليس إلى ملتمسه ؛ لأن مشيئة الله ـ سبحانه ـ اقتضت أن يترك الكائن البشرى يشق طريقه ؛ بما ركب فى فطرته من استعداد للخير والشر ، وبما وهبه من عقل مرجح ؛ وبما أمده من التذكير والتحذير على أيدى الرسل ، ومن الضبط والتقويم بهذا الدين .

كما اقتضت أن يتلقى الهداية والغواية ؛ وأن يصطرع فى كيانه الخير والشر ؛ وأن ينتهى إلى إحدى النهايتين ، فتحق عليه سُنة الله وتتحقق مشيئته بالابتلاء ، سواء اهتدى أو ضل ، فعلى سنة الله الجارية ووفق مشيئته الطليقة ، تحقق الهدى أو الضلال .

وبعد ذلك يأتى مشهد آخر ينظر الله إلى آدم وزوجته بعد طرد إبليس من الجنة ، ليعهد إليهما ربهما بأمره فى حياتهما ؛ ولتبدأ تربيته لهما وإعدادهما لدورهما الأساسى ؛ ويحظر عليهما الأكل من شجرة معينة بعد أن أذن لهما بالمتاع الحلال ، ووصاهما بالامتناع عن المحظور . ولابد أن الحظر فى ذاته هو المقصود .

ولكن إبليس راح يداعب الشهوات فوسوس لهما ليبدى لهما ما ووارى عنهما من سوآتهما فهذا كان هدفه .. لقد كانت لهما سوآت ، ولكنها كانت مواراة عنهما لا يريانها ، وجاءهما من ناحية رغائبهما العميقة ﴿ وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴾ .

ولما كان اللعين يعلم أن الله قد نهاهما عن هذه الشجرة ، وأن هذا النهى له ثقله فى نفوسهما وقوته ؛ فقد استعان على زعزعته ـ بتأمينهما من هذه الناحية ؛ فحلف لهما بالله إنه لهما ناصح وصاد فى نصحه .

ونسى آدم وزوجته أنه عدوهما الذى لا يمكن أن يدلهما على خير ! وأن الله أمرهما أمرًا عليهما طاعته سواء عرفا علته أم لم يعرفاها ! وأنه لا يكون شىء إلا بقدر من الله ، فإذا كان لم يقدر لهما الخلود والملك الذى لا يبلى فلن ينالاه !

نسيا هذا كله واندفعا يستجيبان للإغراء ! وتمت الخدعة ، وآتت ثمرتها المرة ، لقد أنزلهما الشيطان بهذا الغرور من طاعة الله إلى معصيته ، فأنزلهما إلى مرتبة دنيا ، وشعرا الآن أن لهما سوآت ، تكشفت لهما بعد أن كانت مواراة عنهما ، فراحا يجمعان من ورق الجنة ويضعان هذا الورق على سوآتهما ﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ .

وسمعا هذا العتاب والتأنيب من ربهما على المعصية وإغفال النصيحة ؛ وأما هذا النداء العلوى يتكشف الجانب الآخر فى طبيعة هذا الكائن البشرى المتفرد ـ كما يقول صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ فى ظلاله : إنه ينسى ويخطئ . إن فيه ضعفًا يدخل منه الشيطان . إنه لا يلتزم دائماً ولا يستقيم دائماً ، ولكنه يدرك خطأه ، ويعرف زلته ؛ ويندم ويطلب العون من ربه والمغفرة ، إنه يثوب ويتوب ، ولا يلح كالشيطان فى المعصية . ولا يكون طلبه من ربه هو العون على المعصية !

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الصراع بين الخير والشر ، والحق والباطل ، صراع قديم وسيستمر إلى يوم القيامة .

٢ ـ الكبر والحسد مرضان من أخطر الأمراض النفسية التى تدمر صاحبها ، وتؤدى إلى كثير من أنواع الجرائم والإفساد .

أخرج الترمذى ، عن عمرو بن شعيب عن جده أن رسول الله ﷺ قال : « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر فى صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان يساقون إلى سجن فى جهنم يُقال له : بولس يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار » .

٣ ـ إبليس اللعين عدو لآدم وذريته ، فعلينا أن نتخذه عدوًا حتى لا نتعرض لإغوائه وإضلاله .

٤ ـ المعصية من أهم أسباب كشف العورات ، والطاعة لله ورسوله سبيل إلى الستر فى الدنيا والآخرة .

٥ ـ إن العرى فطرة حيوانية ، ولا يميل الإنسان إليه إلا وهو يرتكس إلى مرتبة أدنى من مرتبة الإنسان ، وإن رؤية العرى جمالًا هو انتكاس فى الذوق البشرى قطعًا .

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى
ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا
تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا
يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ
ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا
لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ
إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟
فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ
أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ
وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا
هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ
أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾
١٥٣

معانى الكلمات :

يوارى : يستر . **ريشاً** : مالاً أو لباس زينة .

لباس التقوى : الإيمان وثمرته .

لا يفتننكم : لا يخدعنكم . **قبيله** : جنوده وذريته . **أقيموا وجوهكم** : توجهوا إلى عبادته مستقيمين .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان فضيلة التقوى والحياء وقبح العرىّ وحب الفاحشة .

٢ ـ أن نداوم الحذر ، ونضاعف اليقظة من عدونا الدائم إبليس لعنه الله .

٣ ـ أن ندرك مكانة الإنسان فى الوجود وضخامة الدور المنوط به وسعة الآفاق التى يتحرك فيه .

٤ ـ أن نستشعر كرامة ولاية الله للمؤمنين ، وتعاسة ولاية الشيطان للكافرين .

المحتوى التربوى :

وتمضى الآيات تكمل القصة الأولى لأبى البشر آدم عليه السلام وزوجه حواء ، حيث ندما وقالا : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ وتلك خصيصة « الإنسان » التى تصله بربه ، وتفتح له الأبواب إليه ، الاعتراف ، والندم ، والاستغفار ، والشعور بالضعف والاستعانة به ، وطلب رحمته . مع اليقين بأنه لا حول له ولا قوة إلا بعون الله ورحمته ، وإلا كان من الخاسرين .

وهنا تكون التجربة الأولى قد تمت ؛ وعرفها وذاق مرارتها واستعد بهذا التنبيه لخصائصه الكامنة ـ لمزاولة اختصاصه فى الخلافة ؛ وللدخول فى المعركة التى لا تهدأ أبدًا مع عدوه ﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ الآية ، لقد هبطوا جميعًا إلى الأرض ، آدم وزوجه ، وإبليس وقبيله . هبطوا ليصارع بعضهم بعضا ، ولتدور المعركة بين طبيعتين وخليقتين : إحداهما ممحضة للشر ، والأخرى مزدوجة الاستعداد للخير والشر ؛ وليتم الابتلاء ، ويجرى قدر الله بما شاء .

وكتب على آدم وذريته أن يستقروا فى الأرض ، ويمكنوا فيها ، ويستمتعوا بما فيها إلى حين وكتب عليهم أن يحيوا فيها ويموتوا ؛ ثم يخرجوا منها فيبعثوا . ليعودوا إلى ربهم فيدخلهم جنته أو ناره ، فى نهاية الرحلة الكبرى .

ويعقب الله على هذه القصة بعدة نداءات لبنى آدم : أولها تشريعه لهم اللباس الذى يستر العورات المكشوفة ، ثم يكون زينة ـ بهذا الستر ـ وجمالاً ، بدل قبح العرى وشناعته ويصفه بأن خير ، لأنه لباس التقوى .

ويقول صاحب الظلال : فهناك تلازم بين شرع الله اللباس لستر العورات والزينة ، وبين التقوى . كلاهما لباس ، هذا يستر عورات القلب ويزينه ، وذاك يستر عورات الجسم ويزينه ، وهما متلازمان . فعن شعور التقوى لله والحياء منه ينبثق الشعور باستقباح عرى الجسد والحياء منه ، ومن لا يستحيى من الله ولا يتقيه لا يهمه أن يتعرى وأن يدعو إلى العرى ، العرى من الحياء والتقوى ؛ والعرى من اللباس وكشف السوأة !

ويأتى النداء الثانى لبنى آدم ، فى وقفة التعقيب على قصة أبويهم ،وما جرى لهما مع الشيطان ؛ وعلى مشهد العرى الذى أوقفهما فيه عدوهما ، بسبب نسيانهما أمر ربهما والاستماع إلى وسوسة عدوهما ، وهذا النداء تحذير لبنى آدم عامة وللمشركين الذين يواجههم الإسلام فى الطليعة ، أن يستسلموا للشيطان ، فيما يتخذونه لأنفسهم من مناهج وشرائع وتقاليد ؛ فيسلمهم إلى الفتنة ـ كما فعل مع أبويهم من قبل ، إذ أخرجهما من الجنة ونزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما .

وزيادة فى التحذير ، واستثارة للحذر ، ينبئهم ربهم أن الشيطان يراهم هو وقبيله من حيث لا يرونهم ، وإذن فهو أقدر على فتنتهم بوسائله الخفية ، وهم محتاجون إلى شدة الاحتياط ، وإلى مضاعفة اليقظة ، وإلى دوام الحذر ، كى لا يأخذهم على غرة .

ثم يأتى الإيقاع المؤثر الموحى بالتوقى ، إن الله قدر أن يجعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ويا ويل من كان عدوه وليًا ، إنه إذًا يسطير عليه ويستهويه ، ويقوده حيث شاء بلا عون ولا نصير ، ولا ولاية من الله ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

ويواجه القرآن المشركين بهذا الحقيقة الواقعه عندما يكونون فى ولاية الشيطان ؛ وهم يزاولون فاحشة التعرى فى الطواف ببيت الله الحرام وفيهم النساء ! ثم يزعمون أن الله أمرهم بها فقد كان أمر آبائهم بها ففعلوها ، ثم هم ورثوها عن آبائهم ففعلوها ! والله سبحانه ـ يأمر نبيه ـ ﷺ أن يواجههم بالتكذيب لهذا الافتراء على الله ، وبتقرير طبيعة شرع الله وكراهته للفاحشة ، فليس من شأنه سبحانه أن يأمر بها .

إن هؤلاء المشركين ـ على شركهم ـ لم يكونوا يتبجحون تبجح المجتمعات المعاصرة ، التى تقول : ما للدين وشؤون الحياة ، دع ما لله ، وما لقيصر لقيصر ، بل كانوا يفترون الفرية ،

ويزعمون أنها من عند الله ، وقد يكون هذا ألأم وأخبث ، لأنها تخدع الذين فى قلوبهم بقية من عاطفة دينية ، ولكنها على كل حال أقل تبجحًا .

يقول صاحب الظلال : إن الله لا يأمر بالفحشاء إطلاقاً .. والفاحشة : كل ما يفحش أى يتجاوز الحد ـ والعرى من هذه الفاحشة، فالله لا يأمر به .وكيف يأمر الله بالاعتداء على حدوده؟ والمخالفة عن أمره بالستر والحياء والتقوى ؟ ومن الذى أعلمهم بأمر الله ذاك ؟ إن أوامر الله وشرائعه ليست بالادعاء ، إن أوامره وشرائعه واردة فى كتبه على رسله ، وبعد ذلك ينكر عليهم دعواهم فى أن الله أمر بهذه الفاحشة ، ويبين لهم أن أمر الله يجرى فى اتجاه مضاد ، لقد أمر الله بالعدل والاعتدال فى الأمور كلها لا بالفحش والتجاوز وأمر بالاستقامة على منهج الله فى العبادة والشعائر ، والاستمداد مما جاء فى كتابه على رسوله ﷺ ، ولم يجعل المسألة فوضى ، يقول كل إنسان فيها بهواه، ثم يزعم أنه من عند الله . وأمر بأن تكون الدينونة خالصة له، والعبودية كاملة: فلا يدين أحد لأحد لذاته ، ولا يخضع أحد لأمر أحد لذاته .

وعند هذا النداء يأتى التذكير والإنذار ؛ ويلوّح لهم بالمعاد إلى الله بعد انتهاء ماهم فيه من أجل مرسوم للابتلاء ، وبمشهدهم فى العودة وهم فريقان : الفريق الذى اتبع أمر الله . والفريق الذى اتبع أمر الشيطان . وكما بدأكم تعودون : فريقا هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ، ﴿ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ .

وهى نقطة عجيبة تجمع نقطة البدء فى الرحلة الكبرى ونقطة النهاية ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ وقد بدؤوا الرحلة فريقين : آدم وزوجه ، والشيطان وقبيله ، وكذلك سيعودون : الطائعون سيعودون فريقاً مع أبيهم آدم وأمهم حواء فهم المسلمون المؤمنون المتبعون لأمر الله ، والعصاة سيعودون مع إبليس وقبيله ، يملأ الله منهم جهنم ، بولائهم لإبليس وولايته لهم . وهم يحسبون أنهم مهتدون .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ العداوة قائمة إلى يوم القيامة بين آدم وذريته وإبليس وجنوده وذريته ، وليس للشيطان سلطان على عباد الله المخلصين ، وإنما يتولى أمور الذين لا يؤمنون بالله ورسوله .

٢ ـ لا يجوز أن نقلد الآباء والأجداد فى المعاصى وقبائح الذنوب ، وإنما نوجه أعمالنا لله سبحانه وتعالى .

٣ ـ ضرورة الاستقامة والمحافظة على الصلاة والإخلاص لله .

٤ ـ التجمل فى الملابس فطرة أودعها الله قلوب عباده ، ولا حرج فى ذلك ، وكذلك ستر العورات ، والتزين المباح ، ولكن أفضل اللباس وأبقاه هو لباس الإيمان والتقوى والأعمال الصالحة .

الجزء الثامن — سورة الأعراف

الحزب ١٦

۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ
وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ
ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ
فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ
لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا
بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ
سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ
فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٤﴾
يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ
ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ
كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ
فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ
بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ
رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ
قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

١٥٤

معانى الكلمات :

زينتكم : ما يتزين به من الثياب وغيرها .

لا تسرفوا : لا تجاوزوا الاعتدال .

الفواحش : الأمور القبيحة جداً .

بطن : خفى . **البغى** : الظلم .

سلطانا : دليلاً .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ ألا يحرم المسلم ما أحل الله من الزينة والطيبات من الرزق .

٢ ـ أن نتخذ الزينة والطيب عند الذهاب إلى كل عبادة .

٣ ـ ألا نتجاوز حد الاعتدال فى المأكل والملبس ، وما أحل الله .

٤ ـ أن نعلم أن الافتراء على الله بدون علم من أعظم المحرمات .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق مكررًا نداء المولى ـ عز وجل ـ إلى بنى آدم ليؤكد على الحقائق الأساسية للعقيدة،فى مواجهة ما عليه المشركون العرب فى الجاهلية،والنداء هنا إلى بنى آدم كافة أن يأخذوا زينتهم من اللباس الذى أنزله الله عليهم عند كل عبادة ، وكذلك ليتمتعوا بالطيبات من الطعام والشراب دون إسراف ، وقد ورد أنه كان هناك تحريم فى الطعام ، كالتحريم فى الثياب بطوافهم عرايا حول البيت ، وكان هذا من مبتدعات قريش كذلك .

ولا يكتفى السياق بالدعوة إلى اتخاذ الزينة عند كل مسجد ، وإلى الاستمتاع بالطيب من الطعام والشراب ، بل يستنكر تحريم هذه الزينة التى أخرجها الله لعباده ، وتحريم الطيبات من الرزق ، فمن المستنكر أن يحرم أحد ـ برأيه ـ ما أخرجه الله للناس من الزينة أو من الطيبات . فتحريم شىء أو تحليله لا يكون إلا بشرع من الله .

ويتبع الاستنكار بتقرير أن هذه الزينة من اللباس ، وهذه الطيبات من الرزق ، هى حق للذين آمنوا بحكم إيمانهم بربهم الذى أخرجها لهم ـ ولئن كان سواهم يشاركهم فيها فى هذه الدنيا ، فهى خالصة لهم يوم القيامة لا يشاركهم فيها الذين كفروا ولن يكون الشأن كذلك ، ثم

تكون محرمة عليهم ؛ فما يخصهم الله فى الآخرة بشىء هو حرام ! والذين ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ حقيقة هذا الدين هم الذين ينتفعون بهذا البيان .

فأما الذى حرمه الله حقاً ، فليس هو الزينة المعتدلة من اللباس ، وليس هو الطيب من الطعام والشراب ـ فى غير سرف ولا مخيلة ـ إنما الذى حرمه الله حقًا هو الذى يزاولونه فعلاً !

فالذى حرمه الله . الفواحش ـ ما ظهر منها وما بطن ـ من الأعمال المتجاوزة لحدود الله . والإثم وهو كل معصية لله على وجه الإجمال ، والظلم الذى يخالف الحق والعدل ، وإشراك ما لم يجعل الله به قوة ولا سلطاناً مع الله ـ سبحانه ـ فى خصائصه ، ومنه الذى كان واقعاً فى الجاهلية .

ويقول صاحب الظلال : ومن عجيب ما روى من حال المشركين الذين خوطبوا بهذه الآيات أول مرة ، ووجه إليهم هذا الاستنكار الوارد فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ ﴾ ما رواه الكلبى قال : لما لبس المسلمون الثياب ، وطافوا بالبيت عيرهم المشركون بها ، فنزلت الآية .

ويأتى نداء جديد لبنى آدم يناقش قضية التلقى والاتباع فى شعائر الدين وفى شرائعه ، وفى أمر الحياة كلها وأوضاعها ، وذلك لتحديد الجهة التى يتلقون منها ، إنها جهة الرسل المبلغين عن ربهم ، وعلى أساس الاستجابة أو عدمها للرسل يكون الحساب والجزاء .

وتعرض الآيات مشاهد حافلة بالحركة والتتابع ليوم القيامة مشهد الاحتضار ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ الحشر والحساب ومشهد الفصل والجزاء ؛ والحديث عن شأن المتقين والمستكبرين ؛ بعد الأجل المعلوم ، .ففى مشهد الاحتضار يتحدث عن الذين افتروا على الله الكذب بعد المعلوم .

فزعموا أن ما ورثوه عن آبائهم من التصورات والشعائر ، وما شرعوه هم لأنفسهم من التقاليد والأحكام ، أمرهم به الله ، والذين كذبوا بآيات الله التى جاءهم بها الرسل ـ وهى شرع الله المستيقن ـ وآثروا الظن والخرص على اليقين والعلم . وقد نالوا نصيبهم من متاع الدنيا الذى كتب لهم ، ومن فترة الابتلاء التى قدرها الله ، كما نالوا نصيبهم من آيات الله التى أرسل بها رسله وأبلغهم الرسل نصيبهم من الكتاب .

ويصف السياق مشهد أولئك الذين افتروا على الله كذباً وكذبوا بآياته ؛ وقد جاءتهم رسل ربهم من الملائكة يتوفونهم ، ويقبضون أرواحهم . فدار بين هؤلاء وهؤلاء حوار ﴿ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أين دعاويكم التى افتريتم على الله ؟ وأين آلهتكم التى توليتم فى الدنيا ، وفتنتم عما جاءكم من الله على لسان الرسل ؟ أين هى الآن فى اللحظة الحاسمة التى تسلب منكم فيها الحياة ؛ فلا تجدون لكم عاصماً من الموت يؤخركم ساعة عن الميقات الذى أجله الله ؟

ويكون الجواب هو الجواب الوحيد ، الذى لا معدى عنه ، ولا مغالطة فيه : ﴿ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ غابوا عنه وتاهوا ! فلا نحن نعرف لهم مقرًا ، ولا هم يسلكون إلينا طريقًا ! .. ﴿ وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾ .

قال ابن القيم فى كتابه مدارج السالكين مفسراً قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ الآية ـ قال :

وأما القول على الله بلا علم فهو أشد هذه المحرمات تحريمًا وأعظمها إثمًا : ولهذا ذكر فى المرتبة الرابعة من المحرمات التى عليها الشرائع والأديان ، ولا تباح بحال ، بل لا تكون إلا محرمة ، وليست كالميتة والدم ولحم الخنزير الذى يباح فى حال دون حال ، فإن المحرمات نوعان : محرم لذاته لا يباح بحال ، ومحرم تحريمه عارض فى وقت دون وقت . قال الله تعالى فى المحرم لذاته : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال ﴿ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال ﴿ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ .

ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه ، فقال : ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فهذا أعظم المحرمات عند الله وأشدها إثماً ، فإنه يتضمن الكذب على الله ونسبته إلى ما لا يليق به وتغيير دينه وتبديله ، ونفى ما أثبته وإثبات ما نفاه ، وتحقيق ما أبطله ، وإبطال ما أحقه وعداوة من والاه، وموالاة من عاداه ، وحب ما أبغضه وبغض ما أحبه ، ووصفه بما لا يليق به فى ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله ، فليس فى أجناس المحرمات أعظم عند الله منه ولا أشد إثماً ، وهو أصل الشرك والكفر ، وعليه أسست البدع والضلالات فكل بدعة مضلة فى الدين أساسها القول على الله بلا علم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الحرص على الاعتدال فى المأكل والمشرب وعدم الإسراف ، وشكر الله على ما أنعم به علينا من الطيبات .

٢ ـ الدين الإسلامى يبيح التمتع بالحلال الطيب من الرزق فى المأكل والمشرب من غير تفاخر أو إسراف .

٣ ـ الشرك بالله ، والتجرؤ على القول فى الدين ، وعلى أحكامه ـ بغير علم ـ من أعظم المحرمات عند الله وأشدها إثمًا .

٤ ـ الملائكة إذا توفت المشركين ، تفزعهم عند الموت ، وتقبض أرواحهم إلى النار ، وتوبخهم على إشراكهم .

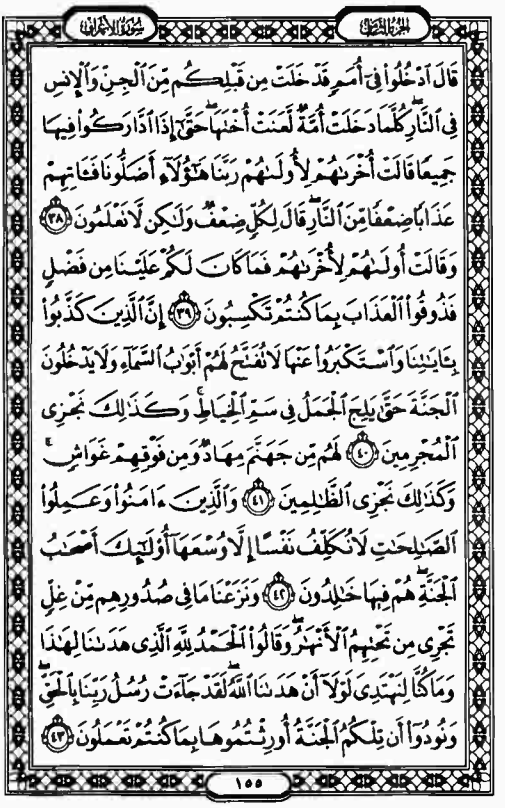
قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ
فِي النَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا
جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ
عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾
وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ
فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ
الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي
الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ
وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ
تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا
وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ
وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾
١٥٥

معانى الكلمات :

ادّاركوا فيها : تلاحقوا فى النار . **أخراهم**: المتأخرون منزلة وهم الأتباع . **لأولاهم** : المتقدمين منزلة (الرؤساء والقادة) . **يلج** : يدخل . **سم الخياط** : ثقب الإبرة . **مهاد** : فراش أى مستقر . **غواش** : أغطية . **وسعها** : طاقتها . **غل** : حقد وعداوة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتدبر مشاهد يوم القيامة ، ونأخذ منها العبرة والعظة .

٢ ـ أن نعلم علم اليقين أن الدنيا دار ممر ، والآخرة دار مقر .

٣ ـ أن نوقن أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله ، بل برحمة الله وفضله .

٤ ـ أن نعمل عمل أهل الجنة ، لنفوز بها ، ونتجنب عمل أهل النار لننجو منها .

المحتوى التربوى :

تحتشد الآيات التالية عدة مشاهد ليوم القيامة ؛ وبعد مشهد الاحتضار يأتى مشهد هؤلاء المحتضرين فى النار ! وتسكت الآيات عما بينهما ، وتسقط الفترة بين الموت والبعث والحشر . وكأنما يؤخذ هؤلاء المحتضرون من الدار إلى النار !

ويقول لهم المولى عز وجل : انضموا إلى زملائكم وأوليائكم من الجن ؟ والإنس،هنا فى النار، أليس إبليس هو الذى عصى ربه ؟ وهو الذى أخرج آدم وزوجه من الجنة ؟ وهو الذى أغوى أبناءه ؟ وهو الذى أوعده الله أن يكون هو ومن أغواهم فى النار ؟ فادخلوا إذن جميعاً ، ادخلوا سابقين ولاحقين ، فكلكم أولياء ، وكلكم سواء .

ولقد كانت هذه الأمم والجماعات والفرق فى الدنيا من الولاء بحيث يتبع آخرها أولها ؛ ويملى متبوعُها لتابعها ، فلننظر اليوم كيف تكون الأحقاد بينها ، وكيف يكون التنابز فيها : ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ فما أبأسها نهاية تلك التى يلعن فيها الابن أباه ، ويتنكر فيها الولى لمولاه ، وعندما يتلاحق آخرهم وأولهم ، ويجتمع قاصيهم بدانيهم ، يبدأ الخصام والجدال ، وتبدأ مهزلتهم ومأساتهم ! وتكشف الآيات عن الأصفياء والأولياء ، وهم متناكرون أعداء ؛

يتهم بعضهم بعضاً ، ويلعن بعضهم بعضاً فيقولون ﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ فتأتيهم الاستجابة : ﴿ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴾ .

وكأنما شملت المدعو عليهم بالداعين ، حينما سمعوا جواب الدعاء ، فإذا هم يتوجهون إليهم بالشماتة كلنا سواء ، فى هذا الجزاء : ﴿ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴾ ! وبهذا ينتهى ذلك المشهد الأليم ؛ ليتبعه تقرير وتوكيد لهذا المصير الذى لن يتبدل ـ وذلك قبل عرض المشهد المقابل للمؤمنين فى دار النعيم .

فبعد أن ذكر ما تقول الملائكة للكافرين عند الموت ، وذكر ما يقول الله لهم يوم القيامة ، عاد السياق ليحدثنا عما يكون للكافر عند الموت ، وما يكون له يوم القيامة فلا يؤذن لهم فى صعود السماء ليدخلوا الجنة ، إذ هى فى السماء ، أو يصعد لهم عمل صالح ، ولا تنزل عليهم البركة ، أو لا تصعد أرواحهم إذا ماتوا كما تصعد أرواح المؤمنين إلى السماء ، ولا يدخلون الجنة أبداً حتى يدخل الجمل فى ثقب الإبرة ؛ ومثل هذا الجزاء الفظيع ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ أى الكافرين وجريمتهم التكذيب بآيات الله ، والاستكبار عنها .

﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ ﴾ أى فراش ؛ ﴿ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖ ﴾ أى أغطية ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أنفسهم بالكفر .

قال الشيخ محمد أبو زهرة فى زهرة التفاسير : « ذكر الله تعالى للكافرين بآيات الله جزاءين :

الجزاء الأول : أنه لا تفتح لهم أبواب السماء ، أى أبواب الرحمة .

الجزاء الثانى : أنهم لا يدخلون الجنّة ، وأن ذلك مستحيل عليهم ، كاستحالة دخول الجمل فى سم الخياط » وذكر قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

ثم تصور الآيات مشهد الذين آمنوا وعملوا الصالحات قدر استطاعتهم ، والذين لم يكلفوا إلا طاقتهم ، هؤلاء يعودون إلى جنتهم ، فهم أصحابها ـ بإذن الله وفضله ـ ورثها لهم ـ برحمته ـ بعملهم الصالح مع الإيمان ، جزاء ما اتبعوا رسل الله ، وعصوا الشيطان ، وجزاء ما أطاعوا أمر الله العظيم الرحيم ، وعصوا وسوسة العدو اللئيم القديم إبليس ! .

ولولا رحمة الله ما كفى عملهم ـ فى حدود طاقتهم ـ وقد قال رسول الله ﷺ « لن يدخل أحداً منكم الجنة عمله » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل » .

وليس هنالك تناقض ولا اختلاف بين قول الله سبحانه فى هذا الشأن ، وقول رسوله ﷺ وهو لا ينطق عن الهوى ، فلقد علم الله من بنى آدم ضعفهم وعجزهم وقصورهم عن أن تفى أعمالهم بحق الجنة،ولا بحق نعمة واحدة من نعمه عليهم فى الدنيا . فكتب على نفسه الرحمة؛

وقبل منهم جهد المقل القاصر الضعيف ؛ وكتب لهم به الجنة ، فضلاً منه ورحمة ، فاستحقوها بعلمهم ولكن بهذه الرحمة ..

وبعد ، فإذا كان أولئك المفترون المكذبون المجرمون الظالمون الكافرون المشركون يتلاعنون فى النار ويتخاصمون ، وتغلى صدورهم بالأحقاد ، بعد أن كانوا أصفياء أولياء ، فإن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى الجنة إخوان متحابون متصافون متوادون يرف عليهم السلام والولاء ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ .

قال القرطبى فى تفسيره « الجامع لأحكام القرآن » : قال رسول الله ﷺ : « الغل على أبوب الجنة كمبارك الإبل قد نزعه الله من قلوب المؤمنين » ، وروى عن على ﷺ أنه قال : أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ .

وإذا كان أهل النار يصطلون النار من تحتهم ومن فوقهم . فأهل الجنة تجرى من تحتهم الأنهار فترف على الجو كله أنسام ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾ وإذا كان أولئك يشتغلون بالتنابز والخصام، فأهل الجنة يشتغلون بالحمد والاعتراف ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ .

وإذا كان أولئك ينادون بالتحقير والتأنيب ﴿ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ ﴾ فإن أهل الجنة ينادون بالتأهيل لرضوان الله والتكريم ﴿ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ إنه التقابل التام بين أصحاب الجنة وأصحاب النار .

فلنقبل على الله بالعمل والإخلاص والمحبة لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين ، والبغض لأعدائه ، فلعلّ الله أن يوقفنا الموقف الأكرم فنكون من أهل الدرجات العلا وما ذلك على الله بعزيز، وإن أملنا به كبير ، ورجاءنا له لعظيم على تقصير فى العمل واتهام للنفس .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الدنيا دار ابتلاء وعمل ، والآخرة دار حساب وجزاء .

٢ ـ لن ينفع أحدٌ أحداً يوم القيامة ، وسوف يلوم المقلدون رؤساءهم ، ويتبرأ الزعماء من أتباعهم ، ويستوون جميعاً فى العذاب ما داموا قد ضلوا عن الهدى والحق .

٣ ـ الله ـ تعالى ـ لا يستجيبُ دعاء الكافرين ، ولا يتقبل أعمالهم .

٤ ـ ليس فى الجنة حقد ، ولا غل ولا حسد ، وإنما نعيم وسعادة ورضا .

٥ ـ يجب أن نعمل أعمال أهل الجنة ؛ لنفوز بها ؛ وأن نتجنب أعمال أهل النار ؛ لننجو منها .

وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا
فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن
لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا
عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ٤٥ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ
رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ
لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ٤٦ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ
أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٧ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ
ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ
وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٨ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ
ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ
٤٩ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا
مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى
ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا
وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ
لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١
١٥٦

معانى الكلمات :

فأذن مؤذن : فناد مناد . **يبغونها** : يريدونها .

بينهما حجاب : حاجز وهو سور بينهما .

الأعراف : أعالى هذا السور وشرفاته .

بسيماهم : بعلامتهم المميزة لهم .

أفيضوا علينا : صبوا أو ألقوا علينا .

ننساهم : يتركهم الله فى العذاب .

وما كانوا : وكما كانوا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتدبر مواقف أهل الجنة وأهل النار الواردة فى الآيات .

٢ ـ أن نعلم أن الحسنات تنجى ، والسيئات تُردى .

٣ ـ أن نذكر دائماً الله عز وجل ـ فى كل حين ، وأن نلتزم بما أمر .

المحتوى التربوى :

تخبرنا الآيات أن أهل الجنة يخاطبون أهل النار على جهة التقريع والتوبيخ إذا استقروا فى منازلهم ، فيقولون لهم : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ قالوا: نعم فنادى مناد أن لعنة الله مستقرة على الظالمين، الذين صدوا الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه، وما جاءت به الأنبياء ، ويبغون أن تكون السبل معوجة غير مستقيمة ، وهم بلقاء الله فى الدار الآخرة جاحدون ، يكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به ، فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل؛ لأنهم لا يخافون حساباً عليه ولا عقابًا ، فهم شر الناس أقوالًا وأعمالًا، ولما ذكر الله تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار نبّه أن بين الجنة والنار حجاباً : وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة ، وهو السور الذى وصفه الله فى سورة الحديد ﴿ فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴾ (الحديد : ١٣) .

وهو الأعراف جمع عرف ، وفى الأصل : فكل مرتفع من الأرض تسميه العرب عرفاً ، **ويقول صاحب الأساس** وحاصل الكلام فى أهل الأعراف ، أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم هؤلاء أهل الأعراف يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه ، وأهل النار بسواد الوجوه ،يحبون أهل الجنة ويطمعون أن يدخلوا الجنة ، وهم داخلوها إن شاء الله ، فإن الله ما جعل

الطمع فى قلوبهم إلا لكرامة يريدها بهم ، هؤلاء أصحاب الأعراف يحبون أهل الجنة كما رأينا ، وإذا رأوا أصحاب النار تعوذوا بالله أن يجعلهم معهم . وكما أن أهل الجنة يُقرِّعون أهل النار ، فإن أهل الأعراف يقرّعون أهل النار بسيماهم : ما أغنى عنكم جمعكم (أى كثرتكم) واستكباركم من عذاب الله شيئا بل صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب والنكال .

وعندما يقول أهل الأعراف ما يقولونه يقول الله لأهل التكبر والأموال : أى لأهل النار عن أهل الأعراف أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمته ، ثم يأمر بإدخال أهل الأعراف الجنة ، فما أكثر حسرة أهل النار .

يقول الزمخشرى : « يقال لأصحاب الأعراف : ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ ﴾ ، وذلك بعد أن يحبسوا على الأعراف وينظروا إلى الفريقين ، ويعرفوهم بسيماهم ، ويقولوا ما يقولون ، وفائدة ذلك بيان أن الجزاء على قدر الأعمال ، وأن التقدم والتأخر على حسبها ، وأن أحدًا لا يسبق عند الله إلا ببقه فى العمل ، ولا يتخلف عنده إلا بتخلفه فيه ، وليرغب السمعون فى حال السابقين ويحرصوا على إحراز قصبتهم ، وليتصوروا أن كل أحد يعرف ذلك اليوم بسيماه التى إستوجب أن يوسم بها من أهل الخير والشر ، فيرتدع المسىء عن إساءته ، ويزيد المحسن فى إحسانه ، وليعلم أن العصاة يوبخهم كل أحد ، حتى أقصر الناس عملا » .

ثم يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم وأنهم لا يجابون إلى ذلك ، ينادى الرجل أباه أو أمه فيقول له : قد احترقت فأفض علىّ من الماء فيقال لهم: أجيبوهم ، فيقولون : إن الله حرمهما على الكافرين بما كانوا يعملونه فى الدنيا باتخاذهم الدين لهوًا ولعبًا ، واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها ، عما أمروا به من العمل للآخرة ، ولذلك فإنهم يعاقبون يوم القيامة بأن يعاملهم الله معاملة المنسى من الخير ، ويتركهم فى النار كما تركوا أن يعملوا للقاء ربهم ويومهم هذا ، ولسبب جحودهم بآيات الله .

قال الشهاب : ﴿ نَنسَىٰهُمْ ﴾ تمثيل شبه معاملته تعالى مع هؤلاء بالمعاملة مع من لا يعتد به ، ويلتفت إليه فينسى ، لأن النسيان لا يجوز على الله تعالى ، أى لأنه تعالى لا يشذ عن عمله شىء ، كما قال : ﴿ فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ (طه : ٥٢) ، والنسيان يستعمل بمعنى الترك كثيرًا فى لسان العرب ، ويصح هنا أيضا ، فيكون استعارة تحقيقية أو مجازًا مرسلا ، وكذا نسيانهم لقاء الله أيضا ، لأنهم لم يكونوا ذاكرى الله حتى ينسوه ، فشبه عدم إخطارهم والقيامة ببالهم ، وقلة مبالاتهم . بحال من عرف شيئا ثم نسيه .. » .

روى عن ابن عباس أنه قال فى تفسير استجداء أهل النار لأهل الجنّة : ينادى الرجل أخاه فيقول : يا أخى ، أغثنى ، فإنى قد احترقت ، فأفض علىّ من الماء ، فيقال : أجبه ، فيقول : إن الله حرمهما على الكافرين . وعن ابن زيد فى الطلب قال : يستسقونهم ويستطعمونهم ـ وفى قوله « حرمهما » قال : طعام الجنة وشرابها ، وروى عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد والبيهقى فى

شعب الإيمان أن عبد الله بن عمر ﷺ شرب ماء بارداً فبكى فسئل ما يبكيك ؟ قال ذكرت آية فى كتاب الله ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ (سبأ : ٥٤) ، فعرفت أن أهل النار لا يشتهون إلا الماء البارد ، وقد قال الله ـ عز وجل ـ أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله .

ويقول صاحب المنار : وفيه أن الآية لا حصر فيها وفى الشعب والتفسير المأثور عنه أيضاً ـ أى عبد الله بن عمر ـ أنه سئل : أى الصدقة أفضل ؟ فقال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل الصدقة سقى الماء » ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا : ﴿ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ وروى أحمد عن سعد بن عبادة أن أمه ماتت ، فقال : يارسول الله أتصدق عليها ؟ قال : « نعم » قال فأى الصدقة أفضل ؟ قال : « سقى الماء » .

ومما روى فى شأن الأعراف ما روى عن حذيفة ، فقال: هم قوم تجاوزت بهم حسناتُهم النار، وقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة وإذا صُرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار ، قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ، فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم ربك ، فقال لهم : اذهبوا ، فادخلوا الجنة ، فإنى قد غفرت لكم .

قال الألوسى فى قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ ﴾ روى عن النبى ﷺ أنه قال : «أحد يحبنا ونحبه، وأنه يوم القيامة يمثل بين الجنة والنار، يُحبس عليه أقوام يعرفون كلا بسيماهم ، وهم ـ إن شاء الله تعالى ـ من أهل الجنة . وقيل : هو الصراط : روى ذلك عن الحسن بن المفضل .

حكى القرطبى وغيره فى أهل الأعراف اثنى عشر قولا ، وأقوى الأقوال ما ذكرنا ، ويشهد له الحديث المرسل الحسن عن عمرو بن جرير قال:سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف قال: « هم آخر من يُفصل بينهم من العباد ، فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد ، قال : أنتم قوم أخرجتكم حسناتكُم من النار ولم تدخلوا الجنة فأنتم عتقائى، فارعوا فى الجنة حيث شئتم » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ تقرير مبدأ ثقل الحسنات ينجى من النار وخفتها تردى ، ومن استوت حسناته وسيئاته ينجو آخر من ينجو من دخول النار .

٢ ـ عدم إغناء المال والرجال أى إغناء لمن مات كافرًا مشركًا من أهل الظلم والفساد .

٣ ـ التحذير من الاغترار بالدنيا حتى ينسى العبد آخرته ، فلم يعد لها ما ينفعه فيها من الإيمان وصالح الأعمال .

٤ ـ حرم الله ـ تعالى ـ الجنة ، وما فيها من طعام وشراب على الكافرين .

٥ ـ من نسى لقاء الله فى الدنيا ترك فى العذاب يوم القيامة ، كأنه منسى ، فالجزاء من جنس العمل .

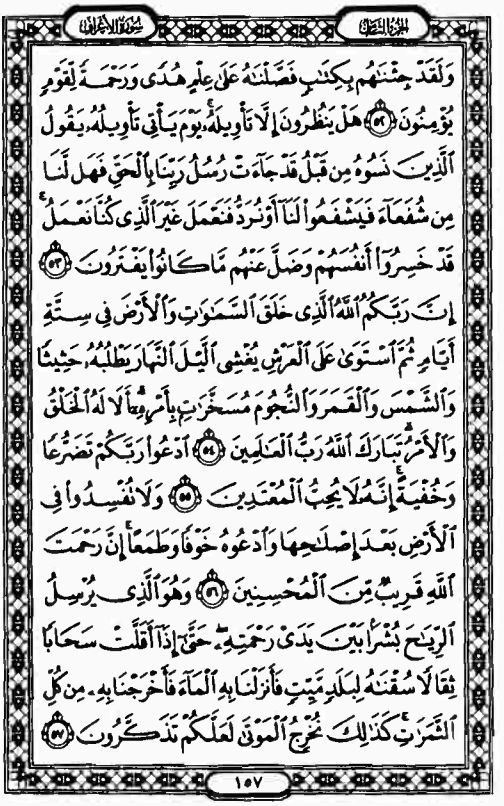
وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ
ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا
مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ
قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾
إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ
أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا
وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ
وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا
وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ
ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ
ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا
ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ
ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾
١٥٧

معانى الكلمات :

يفترون : يكذبون . **يطلبه حثيثاً** : أى طلبا سريعاً . **تبارك الله** : تعظم وتنزه .

تضرعاً : تذللًا وخشوعًا . **خفية** : سرًا فى قلوبكم . **بُشراً** : مبشرات برحمته وهى الأمطار . **أقلت سحابًا** : حملت غمامًا .

ثقالاً : مثقلة بحمل الماء .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتأدب مع الله فى الدعاء ، فالدعاء مخ العبادة .

٢ ـ ألا نتعدى حدود الله ، ولا نفسد فى الأرض بعد إصلاحها .

٣ ـ ألا ندعو مع الله أحدًا ، فهذا شر أنواع الاعتداء فى الدعاء .

المحتوى التربوى :

بعد انتهاء ذلك الاستعراض الكبير ؛ يجىء التعقيب تذكيرًا بهذا اليوم ومشاهده ، وتحذيرًا من التكذيب بآيات الله ورسله ، ومن انتظار تأويل هذا الكتاب فهذا هو تأويله ، حيث لا فسحة لتوبة ، ولا شفاعة فى الشدة ، ولا رجعة للعمل مرة أخرى .

نعود من هذه المشاهد إلى هذه الدنيا التى نحن فيها ! وقد قطعنا رحلة طويلة فى الذهاب والمجىء ! إنها رحلة الحياة كلها ، ورحلة الحشر والحساب والجزاء بعدها وبعد تلك الرحلة الواسعة الآماد من المنشأ إلى المعاد ، يأخذ السياق بأيدى البشر إلى رحلة أخرى فى ضمير الكون ، وفى صفحته المعروضة للأنظار فيعرض قصة خلق السموات والأرض بعد قصة خلق الإنسان، ويوجه الأبصار والبصائر إلى مكنونات هذا الكون وأسراره وإلى ظواهره وأحواله ـ إلى الليل الذى يطلب النهار فى ذلك الفلك الدوار ، وإلى الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله . وإلى الرياح الدائرة فى الجواء ، تُقل السحاب إلى البلد الميت بإذن الله ـ فإذا هو حى ، وإذا الموات يؤتى من كل الثمرات .

هذه السبحات فى ملكوت الله ، يرتادها السياق بعد قصة النشأة الإنسانية ؛ وبعد عرض التصورات الجاهلية والتقاليد التى يشرعها البشر لأنفسهم بلا إذن من الله ولا شرع ، يرتاد السياق هذه السبحات ليرد البشر لأنفسهم بلا إذن من الله ولا شرع ، يرتاد السياق هذه

السبحات ليرد البشر إلى ربهم ، الذى خلق هذا الوجود وسخره ، والذى يحكمه بنواميسه ويصرفه بقدره ، والذى له الخلق والأمر وحده .

يقول صاحب الظلال : فى ظل تلك المشاهد يدعوهم : ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ ، ﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ إن إخلاص الدين لله ، وتقرير عبودية البشر له ، إن هى إلا فرع من إسلام الوجود كله ، وعبودية الوجود كله لسلطانه ، وهذا هو الإيحاء الذى يستهدف المنهج القرآنى تقريره وتعميقه فى القلب البشرى ، وأيما قلب أو عقل يتجه بوعى ويقظة إلى هذا الكون ونواميسه المتسترة ، وظواهره الناطقة بتلك النواميس المتسترة لابد أن يستشعر تأثيراً لا يروا سلطانه ؛ ولابد أن يهتز من أعماقه بالشعور القاهر بوجود المدبر صاحب الخلق والأمر .

ويقول صاحب الأساس : وفى هذا السياق يرشدنا تعالى بعد أن عرفنا على قدرته وعلمه إلى دعائه الذى فيه صلاحنا فى دنيانا وأخرانا ، ويرشدنا أن يكون هذا الدعاء على حال التذلل والاستكانة والخشوع بأن يجتمع فيه التضرع والخفية وقد فسر ابن جرير « تضرعًا » فقال : تذللًا واستكانة لطاعته وفسر « خفية » : بخشوع قلوبكم ، وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه لا جهارًا مراءاة وقد بيّن تعالى أنه لا يحب المعتدين لا فى الدعاء ولا فى غيره ثم نهى عن الإفساد فى الأرض وخاصة بعد الإصلاح .

فإذا كانت الأمور سائرة على السداد ثم وقع الإفساد بعد ذلك كان آخر ما يكون على العباد، فنهى تعالى عن ذلك وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل إليه خوفًا مما عنده من وبيل العقاب ، وطمعًا فيما عنده من جزيل الثواب مبينًا أن رحمته مرصدة للمحسنين الذى يتبعون أوامره ويتركون زواجره .

يقول صاحب الظلال : فى ظل مشهد التضرع فى الدعاء ، وهيئة الخشوع والانكسار فيه لله ، ينهى عن الاعتداء على سلطان الله ، فيما يدعونه لأنفسهم ـ فى الجاهلية ـ من الحاكمية التى لاتكون إلا لله . كما ينهى عن الفساد فى الأرض بالهوى ، وقد أصلحها الله بالشريعة . والنفس التى تتضرع وتخشع خفية للقريب المجيب،لا تعتدى كذلك ولا تفسد فى الأرض بعد إصلاحها. فبين الانفعالين اتصال داخلى وثيق فى تكوين النفس والمشاعر . والمنهج القرآنى يتبع خلجات القلوب وانفعالات النفوس ، وهو منهج من خلق ، الذى يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .

ويقول صاحب المنار : روى عن الحسن البصرى أنه قال : إن كان الرجل قد جمع القرآن وما يشعر به الناس ، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس وإن كان الرجل ليصلى الصلاة الطويلة فى بيته وعنده الزور وما يشعرون به ، ولقد أدركنا أقوامًا ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه فى السر

فيكون علانية أبدًا ، ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء وما يسمع لهم خفية إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم ، وذلك أن الله تعالى يقول : ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ وذلك أن الله ذكر عبدًا صالحًا رضى فعله فقال :﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ ﴾ (مريم) وقال ابن جريح : يكره رفع الصوت والنداء والصياح فى الدعاء ويؤمر بالتضرع والاستكانة .

﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ فى الدعاء ، كما لا يحب ذلك فى سائر الأشياء ، والاعتداء تجاوز الحدود فيها ، وقد نهى عنه مطلقا ومقيدًا ، إلا ما كان انتصافًا من معتمد ظالم بمثل ظلمه والعفو عنه أفضل ، والاعتداء فى كل شىء يكون بحسبه وذلك أن لكل شىء حدًا من تجاوزه كان معتديا ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (البقرة : ٢٢٩) .

وبعد أن ذكر أنه خالق السموات والأرض وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخر ، وأرشد إلى دعائه على ما يشاء قدير ، يعود السياق ليعرفنا تعالى على ذاته من خلال عنايته ورعايته ورحمته بعباده ، ويذكرنا فى الوقت نفسه باليوم الآخر ، فأخبر أنه هو الذى يرسل الرياح مبشرات بين يدى المطر الذى هو مظهر من مظاهر رحمته العظمى بخلقه ، حتى إذا حملت الرياح سحابًا ثقالًا أى من كثرة ما تحمل من الماء يسوقه الله إلى أرض مجدبة ميتة لا نبات فيها فيخرج به من كل الثمرات ، فكما يحيى الله هذه الأرض بعد موتها كذلك يحيى الأجساد بعد صيرورتها رميما يوم القيامة ، فمن كان له قلب يتذكر .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الله ـ تعالى ـ قادر على إخراج الموتى وإحيائهم للحساب والجزاء كما أحيا الأرض الميتة بالمطر فأخرجت النبات والثمار .

٢ ـ الدعاء من العبادة ، ويجب أن يتوجه الإنسان به إلى ربه فى ضراعة ومذلة وخشوع ، طامعًا فى ثوابه خائفًا من عقابه ، ولا يدعو بإثم ولا قطيعة رحم ، وإنما يتأدب مع الله فى الدعاء دون استطالة على الله .

٣ ـ حرمة الإفساد فى الأرض بالشرك والمعاصى بعد أن أصلحها الله تعالى بالإسلام .

٤ ـ شر أنواع الاعتداء فى الدعاء التوجه فيه إلى غير الله ولو ليشفع له عنده ؛ لأن الحنيف من يدعو الله ـ تعالى ـ وحده ، فلا يدعو معه غيره كما قال ﴿ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾(الجن : ١٨) .

٥ ـ البشر سادة هذه الأرض ، وهم منها كالقلب من الجسد والعقل من النفس ، فإذا صلحوا صلح كل شىء ، وإذا فسدوا فسد كل شىء ، وأشد الفساد الكبر والعتو ، الداعيان إلى الظلم والعلوّ .

وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ
إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾
لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم
مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾
قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ
يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ
مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ
رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ
هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ
﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى
سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ
لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾
١٥٨

معانى الكلمات :

نكداً : قليلاً لا خير فيه . **نصرف الآيات** : نكررها بأساليب مختلفة . **قال الملأ** : السادة والرؤساء . **قوماً عمين** : عُمى القلوب عن الحق والإيمان . **سفاهة** : خفة عقل وضلالة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف الفرق بين المؤمن والكافر من أثرهما وطبيعة كل منهما .

٢ ـ أن ندرك وحدة الرسالات السماوية فى عقيدتها .

٣ ـ أن نعلم الهدف من الرسالات السماوية للبشر .

٤ ـ أن نعلم أن المعركة بين الحق والباطل ضرورية وحتمية لا مفر منها .

المحتوى التربوى :

تمضى الآيات فى حديثها المتصل عن أقطار الكون وأسرار الوجود ، فيضرب الله مثلاً للمؤمن والكافر بالبلد الطيب ، والبلد الخبيث ، فالبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه سريعًا وحسنًا وطيبًا ومباركًا ، وأما البلد الخبيث فإن نباته لا يخرج إلا خبيثا لا خير فيه ، فكذلك المؤمن ينزل على قلبه القرآن فينمو إيمانه وينمو الخير فى قلبه ، وأما الكافر فلا يزيده الوحى إلا عنادًا ويختم الله بالتذكير أنه يصرف الآيات لقوم يشكرون .

والشكر ينبع من القلب الطيب ، ويدل على الاستقبال الطيب ، والانفعال الطيب ، ولهؤلاء الشاكرين الذين يحسنون التلقى والاستجابة تصرف الآيات : فهم الذين ينتفعون بها ، ويصلحون لها ، ويصلحون بها .

ثم تعرض الآيات رحلة موكب الإيمان الذى يواجه البشرية فى رحلتها الطويلة ، كلما التوت بها الطريق ؛ وكلما انحرفت عن صراط الله المستقيم ؛ وكلما تفرقت بها السبل تحت ضغط الشهوات ، التى يقودها الشيطان محاولاً إضلالها عن هدى السماء ، ومحاولاً أن ينفذ وعيده .

ويمضى ببنى آدم من خطام هذه الشهوات إلى جهنم ، فإذا موكب الرسل الكرام حداة الطريق يلوّحون للبشرية بالنور ، ويستروحون بها ريح الجنة ، ويحذرونها لفحات السموم ، ونزعات الشيطان الرجيم ، عدوها القديم .

ويعرض سياق الآيات سير هذا الموكب البشرى النبوى وهو يحاول هداية هذا الركب واستنقاذه كلما ضل تماماً عن معالم الطريق فيبدأ بنوح الذى دعا قومه إلى عبادة الله والالتزام برسالاته واتباع رسوله **يقول صاحب الظلال** : « إن دين الله منهج للحياة قاعدته أن يكون السلطان كله فى حياة الناس كلها لله ، وهذا هو معنى عبادة الله وحده ، ومعنى ألا يكون للناس إله غيره » .

ولقد قال نوح لقومه هذه القولة الوحيدة ، وأنذرهم عاقبة التكذيب بها فى إشفاق الأخ الناصح لإخوانه ، وفى صدق الرائد الناصح لأهله ، فهو يخاف عليهم عذاب يوم القيامة إذا لا قوا الله وهم مشركون به ، أو يوم نزول العذاب عليهم .

فكان موقفهم منه هو اتهامه بالضلال والتكذيب .

وينفى نوح عن نفسه الضلال ، ويكشف لهم عن حقيقة دعوته ومنبعها ، فهو لم يبتدعها من أوهامه وأهوائه ، إنما هو رسول من رب العالمين يحمل لهم الرسالة ، ومعها النصح والأمانة ، ويعلم من الله ما لا يعلمون ، فهو موصول به ، وهم عنه محجوبون .

وكأنما القوم قد عجبوا أن يختار الله رسولا من البشر من بينهم ، يحمله رسالة إلى قومه ، وأن يجد هذا الرسول فى نفسه علما عن ربه لا يجده الآخرون ، ويكشف لهم نوح عن هدف الرسالة ، وهو الإنذار لتحريك القلوب بمشاعر التقوى ليظفروا فى النهاية برحمة الله ولا شىء وراء ذلك لنوح ، ولا مصلحة ولا هدف إلا هذا الهدف السامى .

ولكن الفطرة حيسن تبلغ حدًا معينا من الفساد ، لا تتفكر ولا تتدبر ولا تتذكر ، ولقد رأينا من عماهم عن الهدى والنصح المخلص والنذير .. فبعماهم هذا كذبوا ، وبعماهم عوقبوا بالغرق ، وكانت النجاة لنوح ومن معه فى الفلك .

وتمضى عجلة التاريخ فإذا نحن أمام قوم عاد ، حيث أرسل إليهم الله تعالى نبيهم هودًا الذى دعا قومه إلى عبادة الله وتقواه وتذكرُّ نعم الله عليهم ، فانطلقوا يتهمون نبيهم بالسفاهة وبالكذب جميعا فى تحرج ولاحياء ، ولقد نفى عن نفسه السفاهة فى بساطة وصدق ، وبين لهم مصدر رسالته وأنه رسول من رب العالمين .

قال الزمخشرى : « ترك المقابلة بما قالوا لهم ، مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفههم ـ أدب حسن ... وحكاية الله عز وجل ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء ، وكيف يغضون عنهم ... على ما يكون منهم » .

يقول صاحب الظلال : إن البشرية تبدأ طريقها مهتدية مؤمنة موحدة ، ثم تنحرف إلى جاهلية ضالة مشركة ، وهنا يأتيها رسول بذات الحقيقة التى كانت عليها قبل أن تضل وتشرك فيهلك من يهلك ويحيا من يحيا ، والذين يحيون هم الذين آبوا إلى الحقيقة الإيمانية الواحدة . هم الذين علموا أن لهم إلها واحداً ، هم الذين سمعوا قول كل رسول ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾فهى حقيقة واحدة ، يقوم عليها الدين كله ، ويتعاقب بها الرسل على مدار التاريخ .

* إن كل رسول من الرسل ـ صلوات الله عليهم جميعاً ـ قد جاء إلى قومه ، بعد انحرافهم عن التوحيد الذى تركهم عليه رسولهم الذى سبقه . فبنو آدم الأوائل نشؤوا موحدين لرب العالمين ـ كما كانت عقيدة آدم وزوجه ـ ثم انحرفوا ـ حتى إذا جاء نوح عليه السلام دعاهم إلى توحيد رب العالمين مرة أخرى .

ثم جاء الطوفان فهلك المكذبون ونجا المؤمنون وعمرت الأرض بهؤلاء الموحدين لرب العالمين ـ كما علمهم نوح ـ وبذراريهم . حتى إذا طال عليهم الأمد انحرفوا إلى الجاهلية كما انحرف من كان قبلهم .. حتى إذا جاء هود أهلك الله المكذبين بالريح العقيم .. ثم تكررت القصة .. وهكذا . . .

* إن هذا القصص يصور طبيعة الكفر فى نفوس البشر ؛ ويعرض نموذجاً مكرراً للقلوب المستعدة للإيمان ، ونموذجًا مكررًا للقلوب المستعدة للكفر أيضاً .. إن الذين آمنوا بكل رسول لم يكن فى قلوبهم الاستكبار عن الاستسلام لله والطاعة لرسوله ، ولم يعجبوا أن يختار الله واحداً منهم ليبلغهم وينذرهم ، فأما الذين كفروا بكل رسول ، فقد كانوا هم الذين أخذتهم العزة بالإثم ، واستكبروا على السلطان المغتصب فى أيديهم لله صاحب الخلق والأمر .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ المؤمن كثير النفع أينما وجد ، والكافر خبيث لا نفع فيه لأحد .

٢ ـ جميع الرسل دعوا أقوامهم إلى عبادة الله وحده ، وحذروهم من الشرك .

٣ ـ إن الرسل الكرام لا يدعون البشرية لأمر شاذ ، إنما يدعونها إلى الأصل الذى يقوم عليه الوجود كله وإلى الحقيقة المركوزة فى فطرة البشر ، وهى لا إله إلا الله محمد رسول الله .

٤ ـ التركيز فى كل رسالة سماوية كان على أمر واحد : هو تعبيد الناس كلهم لربهم وحده ـ رب العالمين ـ ونزع السلطان كله من الطواغيت التى تدعيه ، وهو القاعدة التى لا يقوم شىء صالح بدونها فى حياة البشر .

٥ ـ على الدعاة مواجهة الباطل ، والصبر على خوض المعركة معه ، فإنها حتمية ، وانتظار فتح الله والدعاء بدعاء شعيب عليه السلام ـ ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ .

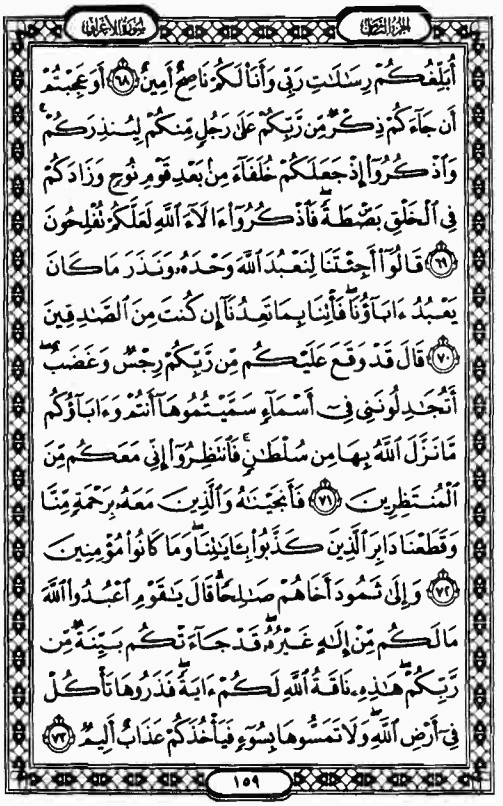
أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ
أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ
وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ
فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ
﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ
يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ
﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ
أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم
مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ
ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا
وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ
﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ
مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن
رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ
فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾
١٠٩

معانى الكلمات :

بسطة : قوة وعظم جسم . **آلاء الله** : نعمة وفضله الكثير . **نذر** : نترك . **رجس**: عذاب أو غشاوة على القلوب .

غضب : لعن وطرد أو سخط . **قطعنا دابر**: أهلكنا آخرهم . **ناقة الله** : خلقها الله من صخر لا من أبوين . **آية** : معجزة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف أن الرسل جميعاً دينهم واحد ورسالتهم واحدة ودعوتهم واحدة فربهم واحد ودينهم الإسلام وغايتهم هداية البشر .

٢ ـ أن نتخلق بخلق المرسلين من صبر ونصح وصدق وأمانة .

٣ ـ أن نتعظ بمصارع الهالكين ، ونستبشر بعاقبة المتقين .

المحتوى التربوى :

يبين السياق وظيفة الرسول وحاله عليه السلام فيها ، أى أبلغكم التكاليف الى أرسلت بها والحال أننى أنا لكم ناصح فيما أبلغكم إياه ، وأدعوكم إليه ؛ لأن فيه سعادتكم ، أمين على ما أقول فيه عن الله تعالى ، فإننى لا أكذب عليكم فكيف أكذب على ربى عز وجل .

وعجبوا كما عجب قوم نوح من قبل من تلك الرسالة ، فإذا هود يكرر لهم ما قاله نوح من قبل : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ ، ويذكرهم بآلاء الله عليهم إذ جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح وزادهم فى الخلق قوة وبسطة ، ولكن الفطرة حين تنحرف لا تتفكر ، ولا تتدبر ولا تتذكر تأخذها العزة بالإثم ، واختصروا الجدل ، واستعجلوا العذاب استعجال من يستثقل النصح ، ويهزأ بالإنذار ، **يقول صاحب الظلال** : « إنه مشهد بائس لاستعباد اواقع المألوف للقلوب والعقول ، هذا الاستعباد الذى يسلب الإنسان خصائص الإنسان الأصلية : حرية التدبر والنظر ، وحرية التفكير والاعتقاد، ويدعه عبدًا للعادة والتقليد، وعبدًا للعرف والمألوف ، وعبدًا لما تفرضه عليه أهؤاؤه أهواء العبيد من أمثاله ، ويغلق عليه كل باب للمعرفة ، وكل نافذة للنور » والمعنى كما **يقول صاحب المنار** : « أجئتنا لأجل أن نعبد الله

وحده على ما نحن عليه من الآثام ، ونترك ما كان يعبد آباؤنا معه من الأولياء والشفعاء ، فنحقرهم ونمتهنم برميهم بالكفر ونحقر أوليانا وشفعاءنا عند الله بترك التوجه إليهم عند التوجه إليه ، وهم الوسيلة ، وهو المقصود بالدعاء والاستغاثة بهم ، والتعظيم لصورهم وتماثيلهم وقبورهم والنذر لهم ، وذبح القرابين عندهم ؟ وهل يقبل الله عبادتنا مع ذنوبنا إلا بهم ولأجلهم ؟ استنكروا التوحيد واحتجوا عيه بما أبطله الشرع والعقل من التقليد واستعجلوا الوعيد » . ومن ثم كان الجواب حاسمًا وسريعًا فى رد الرسول : ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾ .... الآية . فأبلغهم العاقبة التى أنبأه بها ربه ، والتى قد حقت عليهم فلم يعد عنها محيص ، إنه العذاب الذى لا دافع له ، وغضب الله المُصاحب له .

ولا يطول الانتظار فى السياق بعد أن بيّن لهم زيف ما يدّعون فيأتيهم الحق الكامل الذى لا يتخلف منه أحد ، وهو ما عبر عنه بقطع الدابر . والدابر هو آخر واحد فى الركب يتبع أدبار القوم !

وهكذا طويت صفحة من صفحات المكذبين وتحقق النذير مرة أخرى بعد إذ لم ينفع التذكير وتفتح صفحة أخرى ومشهد من مشاهد جولات الحق والباطل ، وصورة المصرع جديد من مصارع المكذبين قوم صالح فقد دعا قومه إلى عبادة الله وتذكر نعمه ، وأتاهم بالمعجزة الشاهدة على صحة رسالته وهى الناقة ؛ فأصروا على الكفر والاستكبار والصد عن سبيل الله عز وجل وقتلوا الناقة ، فعاقبهم الله بالزلزال والصيحة فماتوا أجمعين ، ونجى الله صالحاً والمؤمنين .

وسياق الآيات فى عرض قصة صالح عليه السلام . يستعرض سريعًا الدعوة ، وعاقبة الإيمان بها ، وعاقبة التكذيب ، ولا يذكر تفصيل طلبهم للخارقة ، بل يعلن وجودها عقب الدعوة ، ولا يذكر تفصيلاً عن الناقة أكثر من أنها بينة من ربهم ، وأنها ناقة الله وفيها آية منه ، وكما **يقول صاحب الظلال** : نستلهم من هذا الإسناد أنها ناقة غير عادية ، أو أنها أخرجت لهم إخراجاً غير عادى ، مما يجعلها بينة من ربهم ، ومما يجعل نسبتها إلى الله ذات معنى ، ويجعلها آية على صدق نبوته ، ويخبرهم صالح أنها ناقة الله ، فذروها تأكل فى أرض الله ، وإلا فهو النذير بسوء المصير .

قال صاحب المنار : « وفى البخارى عنه ﷺ أمرهم أن يستقوا منها ويهريقوا ما استقوا من غيرها من تلك الآبار » قال العلماء : وقد علمها بالوحى ، ولا يصح شىء يحتج به فى خلق الناقة من الصخرة أو من هضبة من الأرض كما روى عن أبى الطفيل .

قال ابن كثير : قال علماء التفسير والنسب ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح ، وهو أخو جديس بن عاثر ، وكذلك قبيلة طسم ، كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم عليه السلام وكانت ثمود بعد عاد ، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادى القرى وما حوله ، ويقول صاحب الأساس فى التفسير : وعاثر المذكور فى النسب يسميه سفر التكوين « جاثر » والمساكن التى ذكرها ابن كثير لا زالت موجودة ، وهى تثير دهشة الناظر للجهد الذى

بذل فيها ولبقائها هذه الآلاف من السنين ، وكأنها الآن منحوتة ، والرحلة إليها سهلة ، وقد علمنا رسول الله كيف يكون أدب المسلم . إذ رأى ديار الظالمين الهالكين أو مَرَّ بها ، فعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر « لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين ، إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم » .

ويعلمنا ﷺ بمناسبة قصة ثمود ألا نسأل الله آية ، فقد روى الإمام أحمد عن جابر قال : لما مَرّ رسول الله ﷺ بالحجر قال : « لا تسألوا الله الآيات ، فقد سألها قوم صالح ، فكانت ـ يعنى الناقة ـ ترد من هذا الفج ، وتصدر من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم ، فعقروها ، وكانت تشرب ماءهم يوماً ، ويشربون لبنها يومًا ، فعقروها فأخذتهم صيحة أخمد الله من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان فى حرم الله ، فقالوا من هو يا رسول الله ؟ قال : « أبو رغال فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه » ، وهذا الحديث على شرط مسلم .

يقول صاحب الظلال : لقد أرسل كل رسول من هؤلاء إلى قومه فقال : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾، وقال كل رسول لقومه : ﴿ وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾، معبراً عن ثقل التبعة ؛ وخطورة ما يعلمه من عاقبة ماهم فيه من الجاهلية فى الدنيا والآخرة ورغبته فى هداية قومه ، وهو منهم وهم منه ، وفى كل مرة وقف « الملأ » من علية القوم . وكبرائهم فى وجه كلمة الحق هذه ؛ ورفضوا الاستسلام لله رب العالمين ، وأبوا أن تكون العبودية والدينونة لله وحده ـ وهى القضية التى قامت عليها الرسالات كلها ، وقام عليها دين الله كله ، وهنا يصدع كل رسول بالحق فى وجه الطاغوت ، ثم ينقسم قومه إلى أمتين متفاصلتين على أساس العقيدة ، وتنبتُّ وشيجة القومية ، ووشيجة القرابة العائلية ؛ لتقوم وشيجة العقيدة وحدها، وإذا « القوم » الواحد ، أمتان متفاصلتان لا قربى بينهما ولا علاقة ! وعندئذ يجىء الفتح ، ويفصل الله بين الأمة المهتدية والأمة الضالة ، ويأخذ المكذبين المستكبرين ، وينجى الطائعين المستسلمين . وما جرت سنة الله قط بفتح ولا فصل قبل أن ينقسم القوم الواحد إلى أمتين على أساس العقيدة ، وقبل أن يجهر أصحاب العقيدة بعبوديتهم لله وحده . وقبل أن يثبتوا فى وجه الطاغوت بإيمانهم . وقبل أن يعلنوا مفاصلتهم لقومهم ، وهذا ما يشهد به تاريخ دعوة الله على مدار التاريخ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ الله ـ تعالى ـ أرسل رسله بالحق ؛ ليرشدوا الناس إلى التوحيد ؛ وليخلصوهم من الشرك وطريق الشيطان الرجيم .

٢ ـ من صفات الرسل والدعاة إلى الله : التبليغ والنصح والصدق والأمانة .

٣ ـ يجب أن نتعظ بمن سبقنا من الأمم ، حتى لا نقع فيما وقعوا فيه فيصيبنا ما أصابهم.

الجزء الثامن — سورة الأعراف

وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ
فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ
الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن
قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ
أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ
مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي
آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ
أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ
الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ
جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ
رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ
﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم
بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ
شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾

١٦٠

معانى الكلمات :

بوأكم : أسكنكم وأنزلكم .

فى الأرض : الحجر بين الحجاز والشام .

آلاء الله : نعمة الله وفضله الكثير .

تعثوا : لا تفسدوا إفسادًا شديدًا .

الملأ : السادة من القوم . **عقرو الناقة** : قتلوها .**عتوا** : استكبروا .

الرجفة : الزلزلة الشديدة .

جاثمين: هامدين موتى لا حراك بهم .

تولى : انصرف وأعرض .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتخلق بأخلاق الرسل فى دعوة أقوامهم لله رب العالمين .

٢ ـ أن نعرف طبيعة طريق الدعوة إلى الله وننهض بأعباء الطريق .

٣ ـ أن نؤكد على ثوابت الفطرة فى الزواج ونقاوم الانحراف والشذوذ بكل صوره فى الحياة .

المحتوى التربوى :

وتمضى أحداث قصة صالح عليه السلام مع قومه وبعد عرض الآية ـ وهى الناقة ـ والإنذار بالعاقبة ، يأخذ صالح فى النصح لقومه بالتدبر والتذكر ، والنظر فى مصارع الغابرين ، والشكر على نعمة الاستخلاف بعد هؤلاء الغابرين الهالكين: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ ﴾ الآية .

ويقول صاحب الظلال : ولا يذكر السياق هنا أين كان موطن ثمود ، ولكنه يذكر فى سورة أخرى أنهم كانوا فى الحجر ـ وهى بين الحجاز والشام ، ونلمح من تذكير صالح لهم أثر النعمة والتمكين فى الأرض لثمود ، كما نلمح طبيعة المكان الذى يعيشون فيه ، فهو سهل وجبل ، وقد كانوا يتخذون فى السهل القصور ، وينحتون فى الجبال البيوت . فهى حضارة عمرانية واضحة المعالم فى هذا النص القصير ، وصالح يذكرهم استخلاف الله لهم من بعد عاد ، وإن لم يكونوا فى أرضهم ذاتها، ولكن يبدو أنهم كانوا أصحاب الحضارة العمرانية التالية فى التاريخ لحضارة عاد ، وأن سلطانهم امتداد خارج الحجر أيضاً .وبذلك صاروا خلفاء ممكنين فى الأرض، محكمين فيها، هو ينهاهم عن الانطلاق فى الأرض بالفساد،اغتراراً بالقوة والتمكين، وأمامهم العبرة ماثلة فى عاد الغابرين !

ويختصر السياق القصة فقد آمنت طائفة من قوم صالح ، واستكبرت طائفة والملأ آخر من يؤمن بدعوة تجردهم من السلطان فى الأرض ، وترده إلى إله واحد هو رب العالمين ! ولابد أن يحاولوا فتنة المؤمنين الذين خلعوا ربقة الطاغوت من أعناقهم بعبوديتهم لله وحده ، وتحرروا بذلك من العبودية للعبيد !

فنرى الآيات تخبرنا بالملأ الذين استكبروا من قوم صالح وهم يتجهون إلى من آمن من الضعفاء بالفتنة والتهديد : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ .

وواضح أنه سؤال للتهديد والتخويف ، ولاستنكار إيمانهم به ، وللسخرية من تصديقهم له فى دعواه الرسالة من ربه ولكن الضعاف لم يعودوا ضعافاً ! لقد سكب الإيمان بالله القوة فى قلوبهم ، والثقة فى نفوسهم ، والاطمئنان فى منطقهم .. فهم على يقين من منطقهم وأمرهم ، فماذا يُجدى التهديد والتخويف ، . ومن ثم يعلن المؤمنون ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ ، ويعلن الملأ المستكبرون ﴿ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ على الرغم من البينة التى جاءهم بها صالح ، والتى لا تدع ريبة لمستريب ، وأتبعوا القول بالعمل ، فاعتدوا على ناقة الله التى جاءتهم آية من عنده على صدق نبيه فى دعواه ، والتى حذرهم نبيهم أن يمسوها بسوء فيأخذهم عذاب أليم .

ولكنه التبجح الذى يصاحب المعصية ، ويعبر عن العصيان ، والعتو الذى يظهر الكفر والتحدى باستعجال العذاب والاستهتار ﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ .

ويعالجهم الله بالعذاب الذى كانوا يستعجلون جزاء العتو والتبجح « فأخذتهم الرجفة » الذى يصاحبها الفزع ، وما أجدر العاتى أن يرتجف ويعجز ويجثم بلا حراك ، ويدعهم الله على هيئتهم ﴿ جَٰثِمِينَ ﴾ .

إنه التبجح الذى يصاحب المعصية ، ويعبر عن عصيانهم بقوله : ﴿ وَعَتَوْا۟ ﴾ لإبراز سمة التبجح فيها ، وليصور الشعور النفسى المصحاب لها ، والذى يعبر عنه كذلك التحدى باستعجال العذاب والاستهتار بالتدبر ، ولا يستأنى السياق فى إعلان الخاتمة ، ولا يفصل كذلك ، فالرجفة تأخذهم ، وكما **قال صاحب النار** : « لنزول الصاعقة صيحة شديدة القوة والطغيان ، ترجف من وقعها الأفئدة ، وتضطرب أعصاب الأبدان » ، ثم لم يلبث القوم وقد وقعت الصاعقة بهم أن سقطوا مصعوقين ، وجثموا هامدين خامدين ، وأصبحوا إما بمعنى صاروا ، وإما بمعنى دخلوا فى وقت الصباح حال كونهم جاثمين .

والرجفة والجثوم ، جزاء مقابل للعتو والتبجح ، فالرجفة يصاحبها الفزع ، والجثوم مشهد للعجز عن الحراك ، وما أجدر العاتى أن يرتجف ، وما أجدر المعتدى أن يعجز ، جزاء وفاقا فى المصير ، ويدعهم السياق على هيئتهم ﴿ جَٰثِمِينَ ﴾ ليرسم لنا مشهد صالح الذى كذبوه وتحدوه وقد تولى عنهم قائلاً : ﴿ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ

ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ وهكذا تطوى صفحة أخرى من صحائف المكذبين ، ويحق النذير بعد التذكير على المستهزئين .

ويفتح السياق صفحة جديدة ، ولا يراعى التسلسل الزمنى للأحداث والأمم والرسل ؛ لأنه يتحرى مصارع المكذبين معدداً : ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾ فلم يتعرض السياق هنا لقصة إبراهيم ﷺ ؛ لأنهم لم يهلكوا ؛ لأن إبراهيم ﷺ لم يطلب من ربه هلاكهم ، بل اعتزلهم وما يدعون من دون الله لذا قفز السياق مباشرة إلى قصة قوم لوط ليعرض لنا هلاكهم ويصور لنا انحرافهم ، فقد دعاهم إلى ترك إتيان الرجال وهى الفاحشة التى لم تعرفها البشرية قبلهم ، فكان موقف قومه تكذيبه وتهديده بالإخراج من قريتهم فعاقبهم الله فأمطر عليهم حجارة من السماء أهلكتهم وخسف بقراهم ، وأنجى الله لوطًا والمؤمنين .

ويبدو انحراف الفطرة واضحاً فى قصة قوم لوط ، حتى إن لوطا ليجابههم بأنهم بدعٌ دون خلق الله فيها ، وأنهم فى هذا الانحراف الشنيع غير مسبوقين ، وأنهم مسرفون فى تجاوز منهج الله الممثل فى الفطرة السوية ، ويدفعهم بالإسراف فى الطاقة التى وهبهم الله إياهم ، لأداء دورهم فى امتداد البشرية ونمو الحياة ، فإذا هم يريقونها ويبعثرونها فى غيرموضع الإخصاب ، فهى مجرد « شهوة » شاذة ؛ لأن الله جعل لذة الفطرة الصادقة فى تحقيق سنة الله الطبيعية . فإذا وجدت نفس لذتها فى نقيض هذه السنة . فهو الشذوذ إذن والانحراف والفساد الفطرى قبل أن يكون فساد الأخلاق . ولا فرق فى الحقيقة . فالأخلاق الإسلامية هى الأخلاق الفطرية ، بلا انحراف ولا فساد .

يقول صاحب الظلال : « إن الاعتقاد فى الله الواحد يقود إلى الإسلام لسننه وشرعه ، وقد شاءت سنة الله أن يخلق البشر ذكرًا وأنثى ، وأن يجعلها شقين للنفس الواحدة تتكامل بهما ، وأن يتم الامتداد فى هذا الجنس عن طريق النسل ، وأن يكون النسل من التقاء ذكر وأنثى ومن ثم ركبهما وفق هذه السنة صالحين للالتقاء ، صالحين للنسل عن طريث هذا الالتقاء ـ مجهزين عضويا ونفسيا لهذا الالتقاء وجعل اللذة التى لا ينالانها عندئذ عميقة ، والرغبة فى إتيانها أصلية ، وذلك لضمان أن يتلاقيا فيحققا مشيئة الله فى امتداد الحياة ، ثم لتكون هذه الرغبة الأصلية وتلك اللذة العميقة دافعا فى مقابل المتاعب التى يلقيانها بعد ذلك فى الذرية ... ثم لتكون كذلك ضمنا لبقائهما ملتصقين فى أسرة ..» .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ على الدعاة إلى الله الصبر والثبات على الحق ، وتحمل الإيذاء فى سبيل الدعوة فهذا طريق الأنبياء والمرسلين .

٢ ـ على الدعاة إلى الله أن يرفقوا بالمدعوين ، ويصبروا على أذاهم ، ولا يدخروا جهداً فى هدايتهم ودعوتهم إلى الخير كما فعل أنبياء الله والدعاة المخلصون .

٣ ـ لذة الفطرة الصادقة تكون فى تحقيق سنة الله الطبيعية من عقد الزواج ، ووضع النطفة فى موضع الإخصاب ، وأداء الدور المطلوب فى امتداد البشر ونمو الحياة وما عدا ذلك فهو الشذوذ والانحراف والفساد وانتظار الهلاك .

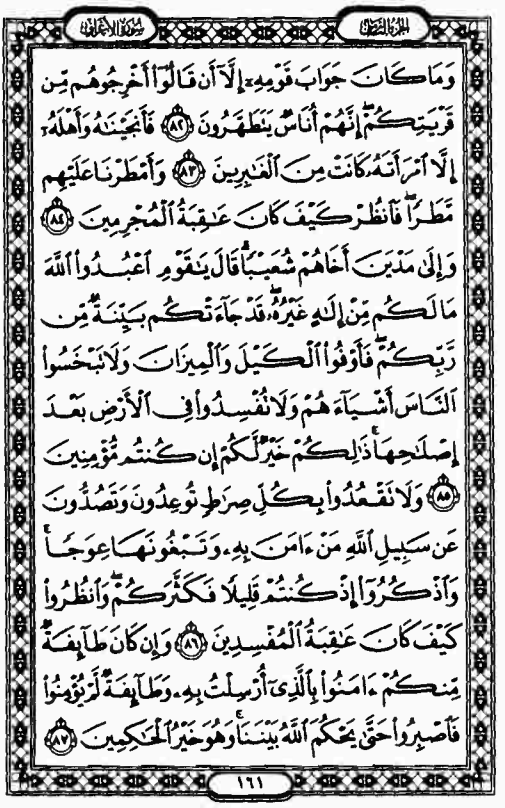
وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

معانى الكلمات :

يتطهرون : يَدَّعُون الطَّهارة مما نأتى .

الغابرين : الباقين فى العذاب كأمثالها .

لا تبخسوا : لا تنقصوا . صراط : طريق .

تبغونها عوجًا : تطلبونها معوجة .

طائفة : جماعة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نحذر الانحراف عن الفطرة السوية ومجاوزة الحد فى الحدود .

٢ ـ أن ننضبط فى معاملاتنا المالية مع الآخرين .

٣ ـ أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ولا نصد الناس عن سبيل الله .

٤ ـ ألا نسرف فى الأقوال والأفعال فهذا أصل كل شر وفساد .

المحتوى التربوى :

ونعود إلى قوم لوط مرة أخرى ، ويظهر لنا الانحراف فى فطرتهم من خلال جوابهم العجيب لنبيهم ، فهم يريدون أن يخرجوا من يتطهر من القرية إخراجًا ، ليبقى فيها الملوثون المدنسون ويقول صاحب الظلال ـ رحمه الله : ولكن لماذا العجب ؟ وماذا تصنع الجاهلية الحديثة ؟ أليست تطارد الذين يتطهرون ، فلا ينغمسون فى الوحل ، الذى تنغمس فيه مجتمعات الجاهلية الحديثة وتسميه تقدمية وتحطيماً للأغلال عن المرأة وغير المرأة ـ أليست تطاردهم فى أرزاقهم وأنفسهم وأموالهم وأفكارهم وتصوراتهم كذلك ؛ ولا تطيق أن تراهم يتطهرون ؛ لأنها لا تتسع ولا ترحب إلا بالملوثين الدنسين القذرين ؟ ! إنه منطق الجاهلية فى كل حين .

قال الإمام ابن القيم فى (زاد المعاد) : « لم يثبت عنه ﷺ أن قضى فى اللواط بشىء ؛ لأن هذا لم تكن تعرفه العرب ، ولم يرفع إليه ﷺ ، ولكن ثبت عنه أنه قال : « اقتلوا الفاعل والمفعول به » رواه أهل السنن الأربعة ، وإسناده صحيح ـ وقال الترمذى : حديث حسن ، وحكم به أبو بكر الصديق، وكتب به إلى خالد بعد مشاورة الصحابة ، وكان على كرم الله وجهه أشدهم فى ذلك » .

وتعرض الآيات خاتمة هؤلاء القوم بلا تفصيل ولا تطويل وكأنها رغبة من المولى عز وجل فى طى هذه الصفحة المخجلة من تاريخ البشرية ، فيقرر النجاة لمن تهددهم العصاة ، ويفصل من

الهلاك ، لأن صلتها كانت بالغابرين المهلكين من قومه فى المنهج والاعتقاد وقد أمطرهم الله مطرًا مهلكًا مع ما صاحبه من عواصف ، وكأنه لتطهير الأرض من ذلك الدنس الذى كانوا فيه، والوحل الذى عاشوا وماتوا فيه ؟ بين القوم ، على أساس العقيدة والمنهج فامرأته وهى ألصق الناس به لم تنج من الهلاك !

وبعد طى هذه الصفحة المقيتة من تاريخ البشرية تأتى الصفحة الأخيرة من صحائف الأقوام المكذبة والضالة عن هدى السماء ، والمناوئة لسلطان الله فى الأرض ، صفحة مدين والنبى الصالح شعيب عليه السلام .

وثمة شىء نلاحظه فى هذه القصة من الإطالة ، بالقياس إلى نظائرها فى هذا الموضع ، وذلك لأنها تتضمن غير قضية العقيدة شيئًا عن المعاملات ، ولقد جاء يدعوهم لتوفية الكيل والميزان ، وينهاهم عن الإفساد فى الأرض والكف من قطع الطريق على الناس ، وعن فتنة المؤمنين عن دينهم الذى ارتضوه .

وندرك من النهى أن قوم شعيب ، كانوا قوماً مشركين لا يعبدون الله وحده ، إنما يشركون معه عباده فى سلطانه ؛ وأنهم ما كانوا يرجعون فى معاملاتهم إلى شرع الله العادل ؛ إنما كانوا يتخذون لأنفسهم من عند أنفسهم قواعد للتعامل ـ ولعل شركهم إنما كان فى هذه الخصلة ، وأنهم لذلك كانوا سيئى المعاملة فى البيع والشراء ، كما كانوا مفسدين فى الأرض ، يقطعون الطريق على من سواهم ، ظلمة يفتنون الذين يهتدون ويؤمنون عن دينهم ، ويصدونهم عن سبيل الله المستقيم ويكرهون الاستقامة التى فى سبيل الله ؛ ويريدون أن تكون الطريق عوجاء منحرفة ، لا تمضى على استقامتها كما هى فى منهج الله .

ويبدأ شعيب عليه السلام بدعوتهم إلى عبادة الله وحده وإفراده سبحانه بالألوهية ، وإلى الدينونة له وحده وإفراده من ثم بالسلطان فى أمر الحياة كله ، ويستصحب فى دعوتهم إلى الدينونة لله وحده، وإقامة حياتهم على منهجه المستقيم ، وترك الإفساد فى الأرض بالهوى بعد ما أصلحها الله بالشريعة ، يستصحب فى دعوتهم إلى هذا كله تذكيرهم بنعم الله عليهم ﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡ ﴾ ، ويخوفهم عاقبة المفسدين من قبلهم﴿ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ .

كذلك يريد منهم أن يأخذوا أنفسهم بشىء من العدل وسعة الصدر ؛ فلا يفتنوا المؤمنين الذين هداهم الله إليه عن دينهم ، ولا يقعدوا لهم بكل صراط ، ولا يأخذوا عليهم كل سبيل ، مهددين لهم موعدين ، وأن ينتظروا حكم الله بين الفريقين ، إن كانوا هم لا يريدون أن يكونوا مؤمنين .

يقول صاحب المنار : « إنه عليه السلام قد بدأ بدعوتهم إلى توحيد العبادة ؛ لأنه ركن الدين الأعظم الذى هدمته الوثنية ، وثنى بالأوامر والنواهى المتعلقة بها لهم الغالبة عليهم ، وأما هذا النهى عن قطعهم الطرق على من يغشى مجلسه عليه السلام ، ويسمع دعوته ويؤمن به فلم يؤخره ؛ لأن اقترافه دون اقتراف التطفيف فى الكيل والميزان وبخس الحقوق ، بل لأنه متأخر عنها فى الزمن ،

فالدعوة قد وجهت أولا إلى أقرب الناس إليه فى بلده ، ثم إلى الأقرب فالأقرب منهم ، وممن يزور أرضهم ، وقد كان الأقربون داراهم الأبعدين استجابة له فى الأكثر ، وتلك سنة الله فى الخلق ... والحاصل أنه نهاهم هنا عن ثلاثة أشياء :

أولها : تعودهم على الطرقات التى توصل إليه يخوفون من يجيئه ليرجع عنه قبل أن يراه ويسمع دعوته .

ثانيا : صدهم من وصل إليه وآمن به بصرفه عن الثبات على الإيمان والإسلام والاستقامة على سبيل الله تعالى الموصلة إلى سعادة الدارين .

ثالثها : ابتغاؤهم جعل سبيل الله المستقيمة ذات عوج بالطعن وإلقاء الشبهات المشككة فيها أو المشوهة لها .. » .

لقد دعاهم إلى أعدل خطة ، ولقد وقف عند آخر نقطة لا يملك أن يتراجع وراءها خطوة .. نقطة الانتظار والتريث والتعايش بغير أذى ، وترك كلٍّ ما اعتنق من دين حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .

ولكن الطواغيت لا يرضيهم أن يكون للإيمان فى الأرض وجود ممثل فى جماعة من الناس لا تدين للطاغوت ، إن وجود جماعة مسلمة فى الأرض ، لا تدين إلا لله ، ولا تعترف بسلطان إلا بسلطانه ، ولا تحكم فى حياتها شرعاً إلا شرعه ، ولا تتبع فى حياتها منهجاً إلا منهجه ، إن وجود جماعة مسلمة كهذه يهدد سلطان الطواغيت حتى لو انعزلت هذه الجماعة على نفسها ، وتركت الطواغيت لحكم الله حين يأتى موعده .

ويقول صاحب الظلال : إن الطاغوت يفرض المعركة فرضاً على الجماعة المسلمة ، حتى لو آثرت هى ألا تخوض معه المعركة ، إن وجود الحق فى ذاته يزعج الباطل ، وهذا الوجود ذاته هو الذى يفرض عليه المعركة مع الباطل ، إنه سنة الله لابد أن تجرى .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ لا ينفع الإنسان يوم القيامة حسب ولا نسب ، وإنما ينفعه إيمانه وعمله الصالح .

٢ ـ ضرورة توفية الكيل والميزان ، وإعطاء كل ذى حق حقه .

٣ ـ الإسراف وعدم الاعتدال فى الأقوال والأفعال يتولد عنه كل شر وفساد .

٤ ـ الكفر والإجرام يحل رابطة الأخوة والقرابة بين أصحابه والبرآء منه .

٥ ـ حرمة الفساد فى الأرض بالمعصية بعد أن أصلحها الله بالإسلام ، وطهرها بشرائعه .

٦ - حرمة التطفيف فى الكيل والميزان ، وبخس الناس أشياءهم ويدخل فى ذلك الصناعات والحرف والمهن وما إلى ذلك .

٧ ـ حرمة الصد عن سبيل الله ، بمنع الناس من التدين والالتزام بالشريعة ظاهرًا أو باطنًا .

الجزء التاسع — سورة الأعراف

۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ
كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم
بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ
ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ
بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ
﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾
ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا
كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ
أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ
عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ
أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ
بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ
ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

١٦٢

معانى الكلمات :

افتح : احكم واقض . **الرجفة** : الزلزلة الشديدة . **جاثمين**:هامدين . **لم يغنوا فيها** : لم يقيموا فى ديارهم متمتعين. **آسى**:أحزن . **يضرعون** : يتذللون ويخضعون . **عفوا** : كثروا وزادوا . **بغتة** : فجأة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف أن الابتلاء سنة من سنن الدعوات .

٢ ـ أن نأخذ الزاد من جهاد وصبر الأنبياء والمرسلين .

٣ ـ أن نثق فى موعود الله بالنصر لدينه وللمؤمنين .

المحتوى التربوى :

تصف الآيات التبجح السافر من ملأ شعيب ﷺ ، وإصرارهم على معركة لا تقبل المهانة ، أو التعايش وأعلنوها صريحة ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ ﴾ ؛ إلا أن قوة العقيدة لا تتعلثم ولا تتزعزع أمام التهديد والوعيد .

لقد وقف شعيب عند النقطة التى لا يملك أن يتزحزح وراءها خطوة ، نقطة المسالمة والتعايش ـ على أن يترك لمن شاء أن يدخل فى العقيدة التى يشاء وأن يدين للسلطان الذى يشاء : فى انتظار فتح الله وحكمه بين الفريقين ـ وما يملك صاحب دعوة أن يتراجع خطوة واحدة وراء هذه النقطة ، تحت أى ضغط ، أو أى تهديد من الطواغيت ، وإلا تنازل كلية عن الحق الذى يمثله وخانه .

فلما أن تلقى الملأ المستكبرون عرضه هذا بالتهديد بالإخراج من قريتهم،أو العودة فى ملتهم، صدع شعيب بالحق ، مستمسكاً بملته ، كارهاً أن يعود فى الملة الخاسرة التى أنجاه الله منها ، واتجه إلى ربه وملجئه ومولاه يدعوه ويستنصره ويسأله وعده بنصره الحق وأهله .

يقول صاحب الظلال : « إن الذى يعود إلى ملة الطاغوت والجاهلية التى لا يخلص فيها الدينونة والطاعة لله وحده ، والتى يتخذ الناس فيها أرباباً من دون الله يقرون لهم بسلطان الله .

إن الذى يعود إلى هذه الملة ـ بعد إذ قسم الله له الخير وكشف له الطريق ، وهداه إلى الحق ، وأنقذه من العبودية للعبيد ـ إنما يؤدى شهادة كاذبة على الله ودينه . شهادة مؤداها أنه لم يجد فى ملة الله خيراً فتركها وعاد إلى ملة الطاغوت ! أو مؤداها ـ على الأقل ـ أن لملة الطاغوت حقاً فى الوجود ، وشرعية فى السلطان ؛ وأن وجودها لا يتنافى مع الإيمان بالله فهو يعود إليها ويعترف بها بعد أن آمن بالله وهى شهادة خطيرة أخطر من شهادة من لم يعرف الهدى ، ولم يرفع راية الإسلام شهادة الاعتراف براية الطغيان ، ولا طغيان وراء اغتصاب سلطان الله فى الحياة !

إن إقامة الإمامة الصالحة فى أرض الله لها أهمية جوهرية وخطورة بالغة فى نظام الإسلام ، فكل من يؤمن بالله ورسوله ويدين دين الحق ، لا ينتهى عمله بأن يبذل الجهد المستطاع لإفراغ حياته فى قالب الإسلام ، ولا تبرأ ذمته من ذلك فحسب ، بل يلزمه بمقتضى ذلك الإيمان أن يستنفذ جميع قواه ومساعيه فى انتزاع زمام الأمر من أيدى الكافرين والفجرة والظالمين حتى يتسلمه رجال ذوو صلاح ممن يتقون الله ، ويرجون حسابه ، ويقوم فى الأرض ذلك النظام الحق المرضى عند الله الذى به صلاح أمور الدنيا وقوام شؤونها » .

لذلك قالها شعيب عليه السلام مدوية حاسمة : ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ ﴾ ؛ ويفوض الأمر لله رب العالمين ، فى مستقبل ما يكون من أمره وأمر المؤمنين معه ، فالأمر موكول إلى هذه المشيئة ، وهو الذين آمنوا معه لا يعلمون أن ربهم وسع كل شىء علما ، فإلى علمه ومشيئته تفويضهم واستسلامهم .

إنه أدب ولى الله مع الله ، الأدب الذى يلتزم به أمره ، ثم لا يتألى بعد ذلك على مشيئته وقدره، وهنا يدع شعيب طواغيت قومه وتهديدهم ووعيدهم ، ويتجه إلى وليه بالتوكل الواثق ، يدعوه أن يفصل بينه وبين قومه بالحق . ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ .

وعندئذ يتوجه الملأ الكفار من قومه إلى المؤمنين به يخوفونهم ويهددونهم ، ليفتنوهم عن دينهم ، ولكن من سنة الله الجارية أنه عندما يتمحض الحق والباطل ، ويقفان وجها لوجه فى مفاصلة كاملة تجرى سنة الله التى لا تتخلف ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾.

ويرد الله ـ تعالى ـ على قولتهم : ﴿ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ وهى التى قالوها مهددين متوعدين للمؤمنين بالخسارة ! فيقرر ـ فى تهكم واضح ـ أن الخسران لم يكن من نصيب الذين اتبعوا شعيباً ، إنما كان من نصيب قوم آخرين﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .

ويطوى صفحتهم مُشيعة بالتبكيت والإهمال ، والمفارقة والانفصال من رسولهم الذى كان أخاهم ، حتى لم يعد يأسى على مصيرهم الأليم وهلاكهم فى الغابرين .

ويختم المولى ـ عز وجل ـ قصص هذه الأمم المكذبة ببيان سنته التى جرت بها مشيئته وحققها قدره بالمكذبين فى كل قرية وهى أن يأخذ الله المكذبين بالبأساء والضراء ، لعل قلوبهم ترق وتلين وتتجه إلى الله وتعرف حقيقة ألوهيته ، فإذا لم يستجيبوا أخذهم بالنعماء والسراء وفتح عليهم الأبواب ، وتركهم ينمون ويكثرون ويستمتعون كل ذلك للابتلاء .

حتى إذا انتهى بهم اليسر والعافية إلى الاستهتار والترخص ، وإلى الغفلة وقلة المبالاة وحسبوا أن الأمور تمضى جزافاً بلا قصد ولا غاية ، وأن السراء تعقب الضراء من غير حكمة ولا ابتلاء ، وأنه إنما أصابهم ما أصاب آباءهم من قبل ؛ لأن الأمور تمضى هكذا بلا تدبير : ﴿ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ ﴾ ! أخذهم الله بغتة ، وهم سادرون فى هذه الغفلة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ ما يبتلى الله به عباده من المصائب والنكبات ، إنما هو بسبب بُعدهم عن الله وعن منهجه ، وبكثرة ذنوبهم ومعاصيهم .

٢ ـ على الدعاة الصبر والثبات على الحق مهما لاقوا من العناد والمكابرة والتهديد والتعذيب من الظالمين ، وليصبروا كما صبر أولو العزم من الرسل .

٣ ـ الله ـ عز وجل ـ ينصر دينه وينزل عقابه بأعدائه وأعداء دينه،وسينتصر هذا الدين ـ دائماً ـ ما نصره أهله . وسيعزه الله ما أعزه أهله وتمسكوا به .

٤ ـ دعوة الرسل جميعاً واحدة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ دعوة واحدة ودينهم دين واحد ، يدعو إلى عبادة الله وحده .

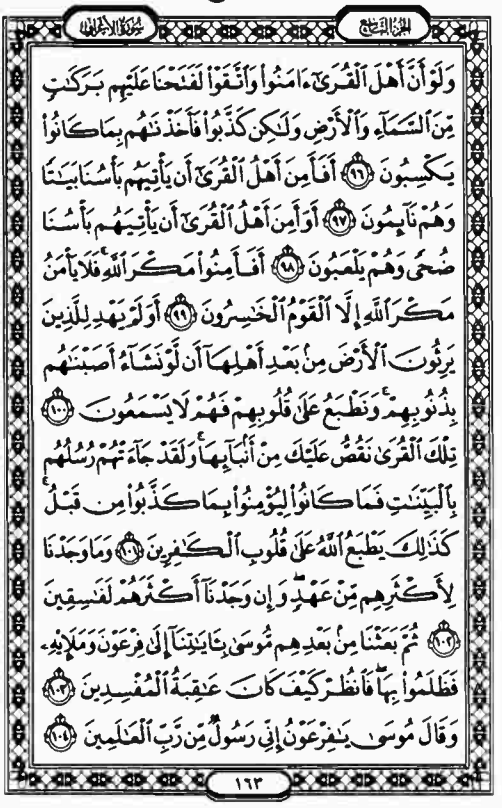
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟
يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا
وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا
ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ
مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ
يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم
بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾
تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ
كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا
لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ
﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ
فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾
وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾
١٦٣

معانى الكلمات :

لفتحنا عليهم : ليسرنا عليهم . **يأتيهم بأسنا** : ينزل بهم عذابنا . **بياتا** : ليلاً .

مكر الله : عقوبته واستدراجه . **نطبع** : نختم . **فظلموا بها** : فكفروا بالآيات .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ـ أن نعرف دلائل الإيمان ومقتضياته فى حياتنا .

٢ ـ أن نعرف أسباب البركة والرزق ونحرص على تحقيقها .

٣ ـ أن نفهم سنن الله الجارية فى هلاك الأمم والظالمين .

٤ ـ أن نحذر مكر الله ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ .

المحتوى التربوى :

تتحدث الآيات عن الطرف الثانى لسنة الله الجارية ، فلو أن أهل القرى آمنوا بدل التكذيب ، واتقوا بدل الاستهتار ؛ ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، هكذا ، بركات من السماء والأرض مفتوحة بلا حساب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، وتظهر هنا حقيقة هامة جدًّا وهى أن العقيدة الإيمانية فى الله ، وتقواه ، ليست مسألة منعزلة عن واقع الحياة ، وعن خط تاريخ الإنسان ؛ إن الإيمان بالله وتقواه ، ليؤهلان بفضى من بركات السماء والأرض وعدا من الله ، ومن أوفى بعهده من الله ؟

يقول صاحب الظلال : « إن الإيمان بالله دليل على حيوية الفطرة ، وسلامة فى أجهزة الاستقبال الفطرية ، وصدق فى الإدراك الإنسانى ، وحيوية فى البنية البشرية ، والإيمان بالله قوة دافعة دافقة ، تجمع جوانب الكينونة البشرية كلها وتطلقها تستمد من قوة الله ، وتعمل لتحقيق مشيئته فى خلافة الأرض وعمارتها ، وفى دفع الفساد والفتنة عنها ، وفى ترقية الحياة ونمائها ، وهذه كذلك من مؤهلات النجاح فى الحياة الواقعية .

والإيمان بالله تحرر من العبودية للهوى ومن العبودية للعبيد ، وما من شك أن الإنسان المتحرر بالعبودية لله ، أقدر على الخلافة فى الأرض خلافة راشدة صاعدة . من العبيد للهوى ولبعضهم بعضاً !

شبهة والرد عليها : ولقد ينظر بعض الناس فيرى أمماً ـ يقولون : إنهم مسلمون ـ مضيقاً عليهم فى الرزق ، لا يجدون إلا الجدب والمحق ! ويرى أمماً لا يؤمنون ولا يتقون ، مفتوحاً عليهم فى الرزق ، والقوة والنفوذ .. فيتساءل : وأين إذن السنة التى لا تتخلف ؟ ولكن هذا وذلك وهم تخيله ظواهر الأحوال !

إن أولئك الذين يقولون : إنهم مسلمون ، لا مؤمنون ولا متقون ! إنهم لا يخلصون عبوديتهم لله ، ولا يحققون فى واقعهم شهادة أن لا إله إلا الله ! إنهم يسلمون رقابهم لعبيد منهم ، يتألهون عليهم ، ويشرعون لهم ـ سواء القوانين أو القيم والتقاليد ـ وما أولئك بالمؤمنين ، فالمؤمن لا يدع عبدًا من العبيد يتأله عليه ، ولا يجعل عبدًا من العبيد ربه الذى يصرف حياته بشرعه وأمره ، ويوم كان أسلاف هؤلاء الذين يزعمون الإيمان مسلمين حقاً ، دانت لهم الدنيا ، وفاضت عليهم بركات من السماء والأرض ، وتحقق لهم وعد الله .

فأما أولئك المفتوح عليهم فى الرزق ، فهذه هى السنة ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ ﴾ ! فهو الابتلاء بالنعمة الذى مَّر ذكره . وهو أخطر من الابتلاء بالشدة .

وفرق بينه وبين البركات التى يعدها الله لمن يؤمنون ويتقون . فالبركة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفاع به ، وكان معه الصلاح والأمن والرضا والارتياح ، وكم من أمة غنية قوية ولكنها تعيش فى شقوة ، مهددة فى أمنها ، مقطعة الأواصر بينها ، يسود الناس فيها القلق، وينتظرها الانحلال هى فى قوة بلا أمن ، وهو متاع بلا رضا ، وهى وفرة بلا صلاح وهو حاضر زاه يترقبه مستقبل نكد ، وهو الابتلاء الذى يعقبه النكال .

وبعد أن يقرر السياق القرآنى تلك السنة الجارية ، فى هذه اللحظة يتجه إلى الغافلين السادرين ، يوقظ فيهم مشاعر الترقب أن يأتيهم بأس الله فى أية لحظة من ليل أو نهار ، وهم سادرون فى النوم واللهو والمتاع .

ويؤكد على سنة أخرى وهى أنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون فما وراء الأمن والغفلة والاستهتار إلا الخسران ، وما يغفل عن مكر الله هكذا إلا الذين يستحقون الخسران ! أفأمنوا مكر الله ؛ وهم يرثون الأرض من بعد أهلها الذاهبين ، الذين هلكوا بذنوبهم ، وجنت عليهم غفلتهم ؟ أما كانت مصارع الغابرين تهديهم وتنير لهم طريقهم ؟

يقول صاحب الظلال : « والله يعد الناس الأمن والطمأنينة والرضوان والفلاح فى الدنيا والآخرة إذا هم أرهفوا حساسيتهم به ، فهو يدعوهم إلى الأمن فى جوار الله لا فى جوار النعيم

المادى المغرى ، وإلى الثقة بقوة الله لا بقوتهم المادية الزائلة وإلى الركون إلى ما عند الله لا إلى ما يملكون من عرض الدنيا » .

إن سنة الله لا تتخلفُ ، ومشيئتُه لا تتوقفُ ، فما الذى يؤمنهُم أن يأخذهم الله بذنوبهم كما أخذ من قبلهم ؟

ثم تلمس الآيات الوجدان البشرى وتطلعه على العاقبة الشاملة لابتلاء تلك القرى وما تكشف عنه من حقائق عن طبيعة الكفر وطبيعة الإيمان ، ثم طبيعة هؤلاء البشر الذين طبع الله على قلوبهم ، فلم تنفعهم البينات ، وظلوا يكذبون بعدها ، كما كذبوا قبلها ، ولم يؤمنوا بما كانوا قد كذبوا به من قبل أن تأتيهم البينة عليه ، وهذا يكشف عن طبيعة فيهم غالبة وهى ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ ﴾ ومنحرفين عن دين الله ، وهذه ثمرة التقلب ونقض العهد ، واتباع الهوى .

ومن لم يمسك نفسه على عهده مع الله ، مستقيماً على طريقته ، مسترشداً بهداه ، فلابد أن تتفرق به السبل ، ولابد أن ينحرف ، ويضل سواء السبيل .

ثم ينتقل السياق ليتحدث عن قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه ، بعد تلك القرى وما حل بها وبالمكذبين من أهلها ، حيث توالت الأحداث ، وجاءت بعثة موسى ، ويعجل السياق بالعاقبة التى انتهوا إليها ـ فلقد ظلموا بآيات الله وكفروا وجحدوا بها ، ثم تبدأ القصة بالمشهد الأول بين الحق والباطل ، فيخاطب موسى عليه السلام فرعون بالحقيقة التى جاء بها كل رسول قبله . حقيقة ربوبية الله الواحد للعالمين جميعًا .

يقول الشيخ محمد أبو زهرة فى زهرة التفاسير : فى قوله تعالى : ﴿ فَظَلَمُوا۟ ﴾ : « الظلم يشمل ظلم الرعية ، ويشمل الظلم فى العقيدة بالشرك ، وإن الشرك لظلم عظيم » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الإيمان بالله وتقواه ، واجتناب المعاصى سبيل إلى زيادة الخير وسعة الرزق .

٢ ـ الله ـ تعالى ـ يمهل عباده ويستدرجهم بالنعمة حتى يهلكوا فى غفلتهم .

٣ ـ المؤمن يعمل الطاعات وهو مشفق خائف من عدم القبول ، والفاجر يعمل المعاصى وهو مطمئن آمن لا يخشى عاقبتها .

٤ ـ إذا أمنت الأمة مكر الله تهيأت للخسران وحل بها لا محالة .

٥ ـ علينا أن نعتبر بما أصاب الأولين ، ونخشى مصارع الطغاة والهالكين ، وذلك بترك ما كان سبباً لهلاكهم وبجهلنا سنن الله فى هلاك الأمم والظالمين .

حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾

١٦٤

معانى الكلمات :

حقيق : حريص . **مبين** : أمره ظاهر .

الملأ : الرؤساء .

أرجه : أخر أمر عقوبته .

حاشرين: جامعين . **استرهبوهم** : خوفوهم تخويفاً . **ما يأفكون** : ما يكذبونه .

صاغرين : مذلولين .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نقف على الدروس والعبر من قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه .

٢ ـ أن نعرف الحكم فى السحر ومن يمارسه .

٣ ـ أن نعلم سنة الله فى مواجهة الحق للباطل .

المحتوى التربوى :

تواصل الآيات قصة موسى عليه السلام مع الطاغية فرعون ، وقد جاءه يخبر برسالة ربه إليه ، وأنه ملزم ومأخوذ بقول الحق على ربه الذى أرسله ؛ فما كان الرسول الذى يعلم حقيقة الله ، ليقول عليه إلا الحق ، وهو قدره ؛ ويجد حقيقته ـ سبحانه فى نفسه ـ ثم أخبره أن معه الحجة القاطعة التى تشهد على أنه رسول الله ، وتدل على صدقة فيما جاء به .

وبناءً على ذلك فإنه يطلب منه أن يرسل معه بنى إسرائيل مطلقاً سراحهم من أسره وقهره ، تاركاً إياهم ليعبدوا ربهم ، وعندئذ أظهر فرعون تشككه وعدم تصديقه ورفضه لما طُلب منه ؛ وطلب من موسى إن كانت معه حجة أن يظهرها إن كان صادقًا فيما ادعى،وعندئذ أظهر موسى معجزتيه الرئيسيتين إلى فرعون: إلقاء العصا فتتحول حية عظيمة بإذن الله ، وإخراج يده من ثوبه بعد ما أدخلها فيه ، فإذا هى بيضاء تتلألأ من غير برص ولا مرض يراها كل من نظر إليها .

ولما أدرك فرعون وملؤه خطورة هذه الدعوة عندئذ اتفق هو ومن حوله من بطانته على اعتبار أن ما صدر عن موسى سحر ، وأن الهدف من هذا السحر هو إخراج المصريين من أرضهم ، وتشاوروا فى أمرهم كيف يصنعون ، وكيف تكون حيلتهم فى إطفاء نوره ، وإخماد كلمته ، وظهور كذبه وافترائه ، وتخوفوا أن يستميل الناس فيما أظهره ، فيكون ذلك سبباً لظهوره عليهم.

وقد استقر رأى الملأ من قوم فرعون ، على أن يرجئ فرعونُ موسى إلى موعد ، وأن يرسل فى أنحاء البلاد من يجمع له كبار السحرة ـ ذلك ليواجهوا سحر موسى ـ بزعمهم بسحر مثله ، وكان ذلك ، وجمع السحرة ، وتشارط السحرةُ فرعون : أنهم إن غلبوا موسى ليثيبنهم وليعطينهم عطاءً جزيلًا ، فوعدهم ومنّاهم أن يعطيهم ما أرادوا ويجعلهم من جلسائه المقربين .

فى قوله تعالى : ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ : « السحرة محترفون .. يحترفون السحرة كما يحترفون الكهانة ، والأجر هو هدف الاحتلاف فى هذا وذاك ! وخدمة سلطان بالباطل هى وظيفة المحترفين من رجال الدين ، وكلما انحرفت الأوضاع احتاج الظلمة إلى مداهنين لهم من رجال الدين يرسمون باسم الدين ظلمهم ، وهؤلاء الظلمة يعطونهم المال ويجعلونهم من المقربين .

ولقد اطمأن السحرة على الأجر ، واشرأبت أعناقهم إلى القرب من فرعون ، واستعدوا للحلبة ، وكانت المواجهة التى بدأت بالتخيير .

ويقول صاحب الظلال : ويبدو التحدى واضحاً فى تخييرهم لموسى ، وتبدو كذلك ثقتهم بسحرهم وقدرتهم على الغلبة، وفى الجانب الأخر تتجلى ثقة موسى عليه السلام واستهانته بالتحدى : ﴿ قَالَ أَلْقُواْ ﴾ ، فهذه الكلمة الواحدة تبدو فيها قلة المبالاة وعظم الثقة الكامنة فى نفس موسى عليه السلام .

وحدثت المفاجأة فإذا بالباطل ينتفش ، ويسر العيون ، ويسترهب القلوب ، وتخيل إلى الكثيرين أنه غالب ، وأنه جارف ، وأنه مُحيق ! ولكن ما هو إلا أن يواجه الحق الهادئ الواثق حتى ينفثئ كالفقاعة ، وينكمش كالقنفد ، وينطفئ كشعلة الهشيم ، وإذا الحق راجح الوزن ، ثابت القواعد ، عميق الجذور ، عندئذ وقع واستقر وثبت الحق ، وذهب ما عداه فلم يعد له وجود ﴿ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ .

ولكن المفاجأة لم تختم بعد ، والمشهد ما يزال يحمل مفاجأة أخرى ، فبعد اندحار الباطل وثبات الحق ﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ ، ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ .

ويقول صاحب الظلال معلقاً على هذا المشهد : إنها صورة الحق فى الضمائر ، ونور الحق فى المشاعر ، ولمسة الحق للقلوب المهيأة لتلقى الحق والنور واليقين .. إن السحرة هم أعلم الناس بحقيقة فنهم ، ومدى ما يمكن أن يبلغ إليه . وهم أعرف الناس بالذى جاء به موسى إن كان من السحر والبشر ، أم من القدرة التى وراء مقدور البشر والسحر .

والعالم فى فنه هو أكثر الناس استعدادًا للتسليم بالحقيقة فيه حين تتكشف له ؛ لأنه أقرب إدراكاً لهذه الحقيقة ، ممن لا يعرفون فى هذا الفن إلا القشور ، ومن هذا تحول السحرة عن التحدى السافر إلى التسليم المطلق ، الذى يجدون برهانه فى أنفسهم عن يقين .

ولكن الطواغيت المتجبرين لا يدركون كيف يتسرب النور إلى قلوب البشر ؛ ولا كيف تمازجها بشاشة الإيمان ؛ ولا كيف تلمسها حرارة اليقين . فهم لطول ما استعبدوا الناس يحسبون أنهم يملكون تصريف الأرواح وتقليب القلوب ـ وهى بين إصبعين من أصابع الرحمن ، يقلبها كيف يشاء .

ومن ثم فوجئ فرعون بهذا الإيمان المفاجئ الذى لم يدرك دبيبه فى القلوب ولم يتابع خطوة فى النفوس ؛ ولم يفطن إلى مداخله فى شعاب الضمائر ، ثم هزته المفاجأة الخطيرة التى تزلزل العرش من تحته ، مفاجأة استسلام السحرة ، وهم من كهنة المعابد ـ لرب العالمين رب موسى وهارون . بعد أن كانوا مجموعين لإبطال دعوة موسى وهارون إلى رب العالمين ! والعرش والسلطان هما كل شيء فى حياة الطواغيت ، وكل جريمة يمكن أن يرتكبوها بلا تحرج فى سبيل المحافظة على الطاغوت .

بمناسبة الكلام عن انقلاب عصا موسى ثعباناً قال الألوسى :

والآية من أقوى الأدلة على جواز انقلاب الشيء عن حقيقته كالنحاس إلى الذهب ، إذ لو كان ذلك تخييلاً لبطل الإعجاز ولم يكن لذكر ﴿ مُّبِينٌ ﴾ فى قوله ﴿ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ فائدة .

وارتكاب غير الظاهر غير ظاهر ، ويدل كذلك ـ أيضاً ـ أنه لا مانع فى القدرة من توجه الأمر التكوينى إلى ما ذكر وتخصيص الإرادة له .

ويقول صاحب الأساس : « فى عصرنا استطاع علماء الكون أن يحوِّلوا العنصر إلى عنصر آخر من خلال تغيير عدد الألكترونات والبروتونات فى الذرة ، فالقول باستحالة ذلك لم يعد وارداً ، أما موضوع السحر فلم يزل ولن يزال النقاش فيه قائماً ، والفارق بينه وبين المعجزة واضح ، فالسحر جزء من عالم الأسباب ، والمعجزة خرق لعالم الأسباب » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ حرمة السحر وحرمة تعلمه ، ووجوب إقامة الحد على من ظهر عليه وعرف به .

٢ ـ من سنن الله الجارية : إذا التقى الحق والباطل فى أى ميدان فالغلبة والعاقبة للحق دائماً .

٣ ـ بطلان السحر وعدم فلاح أهله لقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ (طه : ٦٩) .

٤ ـ على الدعاة ألا يغتروا بانتفاش الباطل ولا يرهبوا صولته فعاقبته إلى خسران وهزيمة، وعاقبة الحق إلى علو وانتصار .

٥ ـ القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ، فالسحرة فى أول النهار كانوا كافرين ، وفى أوسطه مؤمنين ، وفى آخره كانوا شهداء بفضل الله رب العالمين .

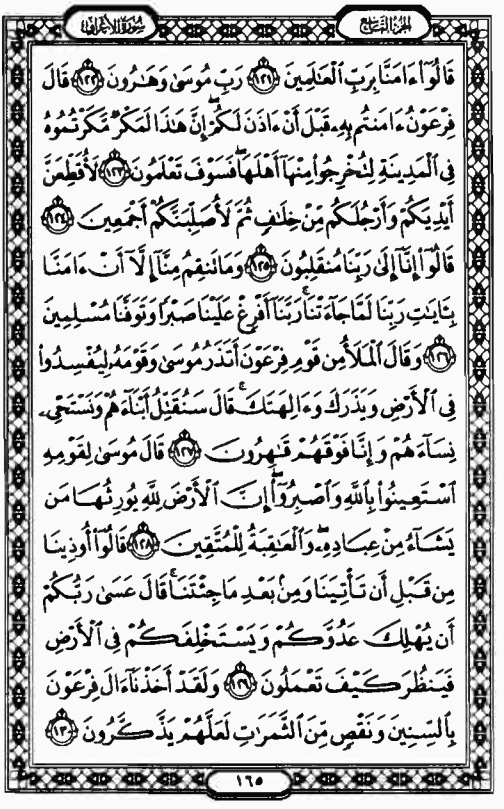
قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ
فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ
فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ
أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾
قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا
بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ
﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟
فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ
نِسَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ
ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن
يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا
مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ
أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ
بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾
١٦٥

معانى الكلمات :

ما تنقم منا : ما تنكر منا . **آيات ربنا** : معجزاته . **أفرغ علينا** : أفض علينا .

يذرك : يتركك .

نستحى نساءهم: نستبقى بناتهم للخدمة .

بالسنين : بالقحط والجدب .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف قيمة الإيمان وأثره فى مواجهة الطغيان والعقبات .

٢ ـ أن ندرك أهمية الاستعانة بالله عند الشدائد .

٣ ـ أن نتزود من قصة السحرة مع فرعون بثبات الدعاة فى وجه الطغاة .

المحتوى التربوى :

ما زالت الآيات تواصل الحديث عن موسى عليه السلام وفرعون بعد أن تبين للسحرة الحق وسجدوا لله معلنين إيمانهم برب موسى وهارون ، فغضب فرعون ـ لعنه الله ـ وتوعد هؤلاء المؤمنين منذ لحظات بالانتقام ، لكنهم أصروا على الإيمان مهما يذوقوا من الآلام والمتاعب ، وطلبوا من الله أن يفيض عليهم بالصبر ، وأن يتوفاهم مسلمين .

يقول صاحب الظلال : « نقف .. أمام إدارك السحرة ـ بعد أشرق نور الإيمان فى قلوبهم ، وجعل لهم فرقانا فى تصورهم ـ أن المعركة بينهم وبين فرعون وملئه هى معركة العقيدة ، وأنه لا ينتقم منهم إلا إيمانهم برب العالمين ، فهذا الإيمان على هذا النحو يهدد عرش فرعون وملكه وسلطانه ، ويهدد مراكز الملأ من قومه وسلطانهم المستمد من سلطان فرعون .... وهذا الإدراك لطبيعة المعركة ضرورى لكل من يتصدى للدعوة إلى ربوبية الله وحده ، فهو وحده الذى أهل هؤلاء المؤمنين للاستهانة بما يلقونه فى سبيله .. ، إنهم يقدمون على الموت مستهينين ليقينهم بأنهم هم المؤمنون برب العالمين ، وأن عدوهم على دين غير دينهم ... وما يمكن أن يمضى المؤمنون فى طريق الدعوة إلى رب العالمين ـ على ما ينتظرهم فيها من العذيب والتنكيل ـ إلا بمثل هذا اليقين .. » .

وهكذا أطلق فرعون ذلك التوعد الوحشى الفظيع : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : إنه التعذيب والتشويه والتنكيل .. وسيلة الطواغيت فى مواجهة الحق ، الذى لا يملكون دفعه بالحجة والبرهان ، وعدة الباطل فى وجه الحق الصريح ، ولكن النفس البشرية حين تستعلن فيها حقيقة الإيمان تستعلى على قوة الأرض،وتستهين ببأس الطغاة؛ وتنتصر فيها العقيدة على الحياة، وتحتقر الفناء الزائل إلى جوار الخلود المقيم ، إنها لا تقف لتسأل : ماذا ستأخذ وماذا ستدع ؟ ماذا ستقبض وماذا ستدفع ؟ ماذا ستخسر وماذا ستكسب ؟ وماذا ستلقى فى الطريق من صعاب وأشواك وتضحيات ؟ لأن الأفق المشرق الوضىء أمامها هناك ، فهى لا تنظر إلى شىء فى الطريق، إنه الإيمان الذى لا يفزع ولا يتزعزع، كما أنه لا يخضع أو يخنع، الإيمان الذى يطمئن إلى النهاية فيرضاها ويستيقن من الرجعة إلى ربه فيطمئن إلى جواره .

الذى يدرك طبيعة المعركة بينه وبين الطاغوت ، وأنها معركة العقيدة فى الصميم ، لا يداهن ولا يناور ، ولا يرجو الصفح والعفو من عدو لن يقبل منه إلا ترك العقيدة ؛ لأنه إنما يحاربه ويطارده على العقيدة ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ﴾ والذى يعرف أين يتجه فى المعركة ، وإلى من يتجه ؛ لا يطلب من خصمه السلامة والعافية ، إنما يطلب من ربه الصبر على الفتنة والوفاة على الإسلام ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ .

ولما عجز قوم موسى فى آياته ، عدلوا إلى إغراء فرعون بموسى ، وأوهموه أن تركه فساد فى الأرض ، وأنه عند ذلك أوعده ، وذلك من أدل الدليل على نبوة موسى ، لأن قتل صاحب المعجزة لا يقدح فى معجزته ، وقال الجشمىُّ : قال مشايخنا : إنَّ العرب لما عدلوا عن معارضة القرآن التى فى إيرادها إبطال أمر النبى ﷺ إلى القتال الذى لا يفيد ذلك ـ دلّ على عجزهم . وهكذا حال كل ضال مبتدع ، إذا أعيته الحجة ، عدل إلى التهديد والوعيد ، وتدل على أن عند الخوف من الظَّلَمة يجب الفزع إلى الله ـ تعالى ، والاستعانة به ، والصبر . ولا مفزع إلا فى هذين : وهو الانقطاع إلى الله ـ تعالى ـ بطلب المعونة فى الدفع ، واللطف له فى الصبر وتدل على أن العاقبة المحمودة تنال بالتقوى ، وهى اتقاء الكبائر والمعاصى .

ونعود إلى السياق مرة أخرى فيقول **صاحب الأساس** : « وأمام هذا الطغيان الرهيب لم يكن موسى إلا أن أمر قومه ـ وهم المستضعفون ـ بالاستعانة بالله والصبر ـ وهكذا تمر لحظات صعبة على أهل الله ، ليس أمامهم إلا هذا ، ووعدهم موسى بالعاقبة ، وأن الدار ستصير لهم ولكنهم ـ وهم من هم فى اللجاج والمخالفة ـ قالوا شاكين متذمرين : إن هذا الأذى قد نزل بهم من قبل مجىء موسى ومن بعد ، فقال منبّهًا لهم عن حالهم الحاضر ، وما يصيرون إليه من مآلهم ﴿ عَسَىٰ

رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ وهذا تخصيص لهم على الصبر وحسن الرجاء ، وعلى العزم على الشكر عند حلول النعم وزوال النقم ، وبدأت العقوبات تتوالى على فرعون وقومه انتصارًا لموسى وقومه ، وعظة لفرعون وقومه ، وتلك سنة الله التى رأيناها من قبل ، أن يأخذ بالباساء والضراء ابتداءً من لم يؤمن برسله ، وهكذا فعل بفرعون وقومه ، ابتلاهم بالجوع والقحط ، فلا ثمر ولا زرع ؛ من أجل أن يتعظوا فكان موقفهم كموقف الأمم السابقة إذا جاءهم الخصب والسّعة ادعّوا أن هذا لهم حق ومستحق، وإن جاءهم الجدب والقحط ادعوا أن هذا بسبب موسى وقومه ، وما جاؤوا به ناسين أن هذا كله من عند الله ، ولكنهم جهلة بالله وسننه ؛ ومع ما ابتلاهم الله به ومع كل ما رأوا من الآيات » .

قال الجشمىّ : بمناسبة قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ قال : تدل الآية على أن الشدة والبؤس قد يكونان لطفاً وصلاحاً فى الدين ، لذلك قال : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ .

يقول صاحب الظلال : « إنه ليس لأصحاب الدعوة إلى رب العالمين إلا ملاذ واحد ، وهو الملاذ الحصين الأمين ، وإلا ولىٌّ واحد وهو الولى القوى المتين ، وعليهم أن يصبروا حتى يأذن الولى القوى المتين . وعليهم أن يصبروا حتى يأذن الولى بالنصرة فى الوقت الذى يقدر بحكمته وعلمه وألا يعجلوا ، فهم لا يطلعون الغيب ، ولا يعلمون الخير » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ قوة الإيمان تتغلب على ما يلاقيه المؤمن من صنوف العذاب ، وألوان الأذى ، وبالإيمان يثبت فى وجه الطغاة .

٢ ـ الاستعانة بالله ، والصبر عند الشدائد زاد الدعاة ، وشأن المصلحين فى كل زمان ومكان .

٣ ـ على الدعاة المضطهدين الصبر حتى يأذن الولى بالنصرة فى الوقت الذى يقدره بحكمته وعلمه ، وألا يعجلوا ، فالنصر مع الصبر .

٤ ـ ما كاد أهل الشرك لأهل الإيمان إلا لتمسكهم بعقيدتهم ، ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ (البروج : ٨) ، ولكن العاقبة فى نهاية الأمر للمتقين .

٥ ـ الابتلاء خط أصيل فى الدعوات ، والشدة والبؤس قد يكونا لطفاً وصلاحاً ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ، والابتلاء يظهر معادن أصحاب الدعوات ويمحص أتباع الرسالات ، ويختبر قوة الإيمان .

فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ
يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ
أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ
لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ
ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ
فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ
ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن
كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ
إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ
فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾
وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ
ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ
ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ
يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

معانى الكلمات :

يطيروا : يتشاءموا . **طائرهم عند الله** : شؤمهم وعقابهم الموعود . **الطوفان** : الموت الجارف . **القمل** : القراد أو القمل المعروف . **الرجز** : العذاب .

ينكثون : ينقضون عهدهم . **دمرنا** : أهلكنا . **يعرشون** : يرفعون من الأبنية .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نأخذ الفوائد من الشدائد التى مرت بها الأمم السابقة .

٢ ـ أن نعلم سنة الله فى المجرمين والمتكبرين فنحذر عواقبها .

٣ ـ أن نفقه طبيعة الطريق فى الدعوة وعدة الدعاة .

المحتوى التربوى :

تعقب الآيات على قصة موسى عليه السلام مع الطاغية فرعون ، وما فيها من عظات وعبر ، فتتحدث عما نزل بقوم فرعون من البلايا والمصائب والآيات ، وما ابتلاهم الله به من القحط والجدب والمجاعات ، والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم نتيجة إصرارهم على الكفر ، وتكذيبهم بآيات الله .

إن الكافرين يقفون من كل رسالة موقف المعاند مهما بدت أمامهم من الآيات الاضعة فكان ردّ آل فرعون على المعجزة:﴿ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : فى ذلك : « هى حالة نفسية تصيب المتجرين حين يدمغهم الحق بينما هواهم ومصلحتهم فى جانب آخر غير جانب الحق والبينة والدليل ! » .

فلقد مضى فرعون وملؤه إذن فى جبروتهم ؛ ونفذ فرعون وعيدَه وتهديدَه ، فقتل الرجالَ واستحيى النساء ، ولقد مضى موسى وقومه يحتملون العذاب ، ويرجون نصر الله ، ويصبرون على الابتلاء ، وعندئذ عندما نستقرأ الموقف : إيمان يقابله كفر ، وطغيان يقابله صبر ، وقوة أرضية تتحدى إرادة الله ، عندئذ أخذت القوة الكبرى تتدخل سافرة بين الطغاة والصابرين .

فأخذ الله ـ عز وجل ـ آل فرعون بالجدب والقحط ونقص الثمرات ؛ ولم ينتبه آل فرعون إلى العلاقة بين كفرهم وفسقهم عن دين الله ، وبغيهم وظلمهم لعباد الله ، وبين أخذهم بالجدب ونقص الثمرات فى مصر التى تفيض بالخصب والعطاء ، ولا تنقص غلتها عن إعالة أهلها إلا لفسوق أهلها وأخذهم بالابتلاء لعلَّهم يتذكرون !

لم يتنبهوا لهذه الظاهرة التى شاءت رحمة الله بعباده أن تبرزها لأعينهم ، ولكنهم كانوا إذا أصابتهم الحسنة والرخاء حسبوها حقًا طبيعيًا لهم ! وإذا أصابتهم السيئة والجدب نسبوا هذا إلى شؤم موسى ومن معه عليهم .

وعقابًا لهم على هذا السلوك المقيت أرسل الله عليهم الطوفان فعم الصحراء ، وأتلف عُشيها، وكسر شجرها ، وتواصلت الرعود والبروق ونيران الصواعق فى جميع أرض مصر ، وجاء الجراد فأكل العشب والثمر ، مما تركه الطوفان ، وسلط القُملَّ على الناس والبهائم وصعدت من الأنهار والمناقع الضفادع فصارت مياه مصر جميعاً دماً عبيطاً ومات السمك فيها ، وأنتنت الأنهار ؛ ومع كل هذه الآيات المفصلات استكبروا عن الإيمان بالله ، فلم يؤمنوا لموسى وكانوا قومًا عاصين كافرين .

ولما وقع بهم العذاب المفصل ﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ ، **قال الشهاب** : سميت النبوة عهدًا ؛ لأن الله عهد إكرام الأنبياء بها ، وعهدوا إليه تحمل أعبائها ، أو لأن لها حقوقًا تحفظ ، كما تحفظ العهود ، أو لأنها بمنزلة عهد ومنشور من الله تعالى .

ثم تجىء الخاتمة ـ وفق سنة الله فى أخذ المكذبين ـ بعد الابتلاء بالضراء والسراء،وتقع الواقعة، ويدمر الله على فرعون وملئه ـ بعد إذا أمهلهم وأجلهم إلى أجل هم بالغوه ـ ويحقق وعده للمستضعفين الصابرين ، بعد إهلاك الطغاة المتجبرين ، فأغرقهم الله بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى وإعراضهم ، وعدم تفكرهم ومبالاتهم بها .

قال الجشميُّ : تدل الآيات أنه تعالى أهلكهم بعد أن أزاح العلة بالآيات ، وتدل على أن ما أصابهم كان عقوبة وجزاء على فعلهم ، وتدل على قبح الاعتراض على آيات الله ، وتدل على وجوب النظر ، وتدل على أن النكث فعلهم والإعراض ، فلذلك عاقبهم عليها .

وتمضى السنون وبعد عشرات السنوات من حادث إغراق فرعون بعد وفاة موسى عليه السلام وبعد التيه أربعين سنة ، يأتى البيان القرآنى بعرض صفحة جديدة فى حياة بنى إسرائيل وهى ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ فرفعهم الله من حضيض المذلة إلى أوج العزة ؛ لكمال لطفه تعالى بهم ، وعظيم أحسانه إليهم ، وبارك فى أقواتهم وأرزاقهم ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ .

قال الزمخشرى : وحسبك به حاثاً على الصبر ، ودالاً على أن من قابل البلاء بالجزع ، وكلمة الله إليه ، ومن قابله بالصبر ، وانتظار النصر ، ضمن الله له الفرج .

وليس هذا فحسب ، بل دمر الله ما كانوا يعملون من العمارات وبناء القصور ، وما كانوا يرفعون من الأبنية المشيدة فى السماء كصرح هامان .

قال القاسمى : قال الزمخشرى : وهذا آخر ما قص الله من نبأ فرعون والقبط ، وتكذيبهم بآيات الله : وظلمهم ومعاصيهم ، ثم أتبعه اقتصاص نبأ بنى إسرائيل ، وما أحدثوه بعد إنقاذهم من مُلْكِةَ فرعون ، واستعباده ، ومعاينتهم الآيات العظام ، ومجاوزتَهم البحر . مَن عبادة البقر ، وطلب رؤية الله جهرة ، وغير ذلك من أنواع الكفر والمعاصى ، ليعلم حال الإنسان ، وأنه كما وصفه ﴿ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (إبراهيم : ٣٤) جهول نكود ، إلا من عصمه الله ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ (سبأ : ١٣) وليسلى رسول الله ﷺ ما رأى من بنى إسرائيل المدينة .

ويقول صاحب تفسير المنار : والعبرة فى هذه الآيات أن يتفكر تالى القرآن فى تأثير الإيمان الوحى فى موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ إذ تصديا لأعظم ملك فى أعظم دولة فى الأرض قاهرة لقومها ومعبدة لهم فى خدمتها منذ قرون كثيرة ، فدعواه إلى الرجوع عن الكفر والظلم والطغيان ، وما زالا يكافحانه بالحج والآيات البينات حتى أحظرهما الله تعالى به ، وأنقذا قد مهما من ظلمه وظلم قومه .

فجدير بالمؤمنين أن يفكروا فى وعد الله ـ تعالى للمؤمنين بالنصر كما وعد المرسلين إذا هم قاموا بما أمرهم تعالى به على ألسنتهم ـ وألا يستعظموا فى هذه السبيل قوة الدول الظالمة لهم ، فإن قوة الحق التى نصرها الله تعالى برجلين على أعظم الدول لا تغلب إذا نصرناها ونحن مئات الملايين والله تعالى تعالى يقول ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ (محمد : ٧) ـ ويقول ـ : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الروم : ٤٧) .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الشدائد ترقق القلوب ، وتجلب الخشية إلا عند المتمردين الكفرة ، فإنهم يزدادون بالمحن تمردًا وكفرًا .

٢ ـ كثرة الشكر تزيد النعم ، والكفر بها يزيلها .

٣ ـ على الدعاة إلى الله ألا يستعظموا طغيان الطغاة ، ولا بطش الجبارين ، فقوة الحق تقهر الباطل ، والصبر طريق النصر ، والله وعد عباده المؤمنين قائلاً :(وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) .

٤ ـ على الدعاة أن يصدعوا بدعوة الحق ، ولا يخشوا فى الله لومة لائم ؛ فموسى وهارون تصديا لفرعون وقومه وهم قوم جبارون ، فنصرهما الله ، وأورث قومها ديار الظالمين .

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ۚ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

١٦٧

معانى الكلمات :

متبرٌ : مهلك مدمر . **أبغيكم إلها** : أطلب لكم إلها معبوداً .

يسومونكم : يذيقونكم . **تجلى ربه للجبل** : ظهر له شىء من نوره تعالى .

دكًا : مدكوكًا مفتتا . **صَعِقا** : مغشيًا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ـ أن نعرف كيف حجد بنو إسرائيل نعم الله عليهم فكان سبب هلاكهم .

٢ ـ أن نحذر الجهل بعظمة الله وجلاله ، لئلا نتعرض لسخط رب العالمين .

٣ ـ أن نتوب إلى الله فى كل وقت وكل حين ، ونعلن أننا من المؤمنين .

المحتوى التربوى :

تمضى الآيات تعرض صفحة جديدة من قصة موسى عليه السلام مع قومه بنى إسرائيل ؛ بعد إذ أنجاهم الله من عدوهم؛ وأغرق فرعون وملأه ؛ ودمر ما كانوا يصنعون وما كانوا يعرشون ، وهنا لا يواجه موسى عليه السلام فرعون وملئه ، ولكنه يواجه النفس البشرية ورواسب الجاهلية فى هذه النفس وطبائعها المتنوعة بين القسوة والجبن والضعف عن حمل التبعات من ناحية ، والخوف والتخفى والالتواء والتحايل والتبجح مع الذعر والتوقع الدائم للبلاء وكل خصال السوء ، وتلك طبيعة اليهود .

ويقول صاحب الظلال : لقد عاش بنو إسرائيل فى ظل الإرهاب ، وفى ظل الوثنية الفرعونية يقتل فرعون أبناءهم ويستحى نساءهم ، وعاشوا حياة الذل والسخرة والمطاردة على كل حال ، وفسدت نفوسهم وطبيعتهم وفطرتهم ، وامتلأت نفوسهم بالجبن والذل من جانب ، وبالحقد والقسوة من جانب آخر ، ولم يستنقذهم من هذا الذل إلا الإسلام ، يوم جاءهم بالحرية فأطلقهم من العبودية للبشر بالعبودية لرب البشر .

ونعود إلى الآيات لتخبرنا عما قاله جهلة بنى إسرائيل لموسى عليه السلام حين جاوزوا البحر ، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا ، عندما مروا على عُبَّاد أصنام إذ طلبوا من موسى أن يجعل لهم أصنامًا يعبدونها كما يعبد هؤلاء أصنامهم ، فردّ عليهم واصفا إياهم بالجهل ، وأى جهل أعظم من الجهل بعظمه الله وجلاله ـ وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل ـ ثم يبين لهم أن هذا الذى عليه هؤلاء هالك وعملهم باطل ، ثم ذكرهم موسى بنعم الله عليهم من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره ، وما كانوا فيه من الهوان والذلة ، وما صاروا إليه من العزة والاستعلاء على عدوهم ، والنظر إليه فى حال هوانه وهلاكه وغرقه ودماره ، وما أكرمهم به من تفضيل على عالمى زمانهم ، فكيف يطلب لهم رباً غير الله ، وقد فعل لهم كل ذلك ؟

ذكرهم بأقرب الأشياء إليهم ؛ لأنها أقرب الحجج عليهم . وإلا فمثل موسى لا يطلب ربًّا سوى الله ، ولا يدعوهم إلى رب سوى الله . فضّلهم أو لم يفضلهم . أنجاهم من ظلم فرعون ، أو أبقاهم . فله الأمر من قبل ومن بعد.

قال القاسمى ، قال الجشميُّ : تدل الآيات على أن هلاك الأعداء نعمة من الله يجب مقابلتها بالشكر ، وتدل على أن المحن فى الأولاد والأهل بمنزلة المحن فى النفس ، وتجرى مجراه انتهى .

ثم يقص الله ـ عز وجل ـ ما أتم به النعمة على موسى وقومه ، إذا أنزل عليهم الألواح فى خلوة موسى مع ربه على الطور . وماذا فعلوه من الانحراف الجديد خلال غيبته . فذكر تعالى ممتناً على بنى إسرائيل بما حصل لهم من الهداية ، بتكليمه موسى عليه السلام ، وإعطائه الألواح ، وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم . فذكر أنه واعد موسى ثلاثين ليلة . ثم أمره ـ تعالى ـ أن يكمل بعشر ، فلما عزم موسى على الذهاب إلى الطور ، استخلف موسى على بنى إسرائيل أخاه هارون، وأوصاه بالإصلاح وعدم الإفساد . فلما جاء موسى لميقات الله وحصل له التكليم من الله .

سأل الله ـ تعالى ـ أن ينظر إليه ، فبين له أنه لا يمكن أن يراه فى الدنيا ، وعوضه عن الرؤية بأن أمره أن ينظر إلى الجبل فإذا رأى الجبل مستقرًا عند تجلى الله على الجبل فعندئذ يمكن أن يراه ، فلما تجلى الله تعالى ـ للجبل ساخ الجبل واندك وخر موسى مغشيا عليه ، فلما أفاق من صعقه بدأ يسبح الله وينزهه .

والتسبيح هنا يفيد التنزيه لله عن أن يراه أحد فى الدنيا ؛ ثم ثنى بالتوبة مما سأل . ثم أردف بالإعلان عن نفسه أنه أول المؤمنين من قومه .

قال صاحب المنار : أن موسى ﷺ لما نال فضيلة تكليم الله ـ تعالى ـ له بدون واسطة ، فسمع ما لم يكن ـ يسمع قبل ذلك ، وهو من الغيب الذى لا شبه له ، ولا نظير فى هذا العالم طلب من الرب ـ تبارك وتعالى ـ أن يمنحه شرف رؤيته ، وهو يعلم حتماً أنه ـ تعالى ـ ليس كمثله شىء فى

ذاته ولا فى صفاته التى منها كلامه ـ عز وجل ـ فكما أنه سمع كلاما ليس كمثله كلام بتخصيص ربانى ، استشرف لرؤية ذات ليس كمثله شىء من الذوات ، كما فهم من ترتيب السؤال على التكليم .

فلم يكن عقل موسى ـ وهو فى الذروة العليا من العقول البشرية ـ بدليل العقل والنقل ـ ما نعا شىء من هذا الطلب ، ولم يكن دينه وعلمه بالله تعالى وهما فى الذروة العليا أيضاً ما نعين له منه ، ولكن الله تعالى قال له : ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ ولكى يخفف عليه ألم الرد وهو كليمه الذى قال له فى أول العهد بالوحى إليه ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ (طه : ٤١) أراه بعينيه ومجموع إدراكه من تجليه للجبل بما لا يعلمه سواه أن المانع من جهته هو لا من جانب الجود الربانى ، فنزه الله ،وسبحه، وتاب إليه من هذا الطلب ، فبشره الله ـ تعالى ـ بأنه اصطفاه على الناس برسالته وبكلامه أى دون رؤيته فى الدنيا ، وأمره بأن يأخذ ما أعطاه ، ويكون من الشاكرين له .

قال صاحب (الانتصاف على الكشاف) : إنما سبح موسى لِمَا تبين له من أن العلم قد سبق بعدم وقوع الرؤية فى الدنيا ، والله ـ تعالى ـ مقدس عن وقوع خلاف معلومه ، وعن الخلف فى خبره الحق وقوله الصدق . فلما تبين أن مطلوبه كان خلاف المعلوم ، سبح الله ، وقدس علمه وخبره عن الخلف ، وأما التوبة فى حق الأنبياء فلا تستلزم كونها عن ذنب ؛ لأن منصبهم الجليل ينبغى أن يكون منزهاً مبرأ من كل ما ينحط به ، ولا شك أن التوقف فى سؤال الرؤية على الإذن كان أكمل . وقد ورد : (حسنات الأبرار ، سيئات المقربين) .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ هلاك الأعداء نعمة تستوجب شكر الله ـ عز وجل ـ فالشكر يزيد المنَّ ، والكفر يكثر النقم من الله رب العالمين .

٢ ـ الجهل بعظمة الله تعالى وبما ينبغى تجاه المولى عز وجل من سمات الجاهلية وباعث على سخط رب العالمين .

٣ ـ رؤية الله محالة فى الدنيا ، وثابتة فى الجنة لعباده المتقين ، وممنوع منها الكافرين ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (المطففين) .

٤ ـ ينبغى على المسلم التوبة إلى الله فى كل حال ، فلقد كان النبى ﷺ يستغفر الله ـ عز وجل ـ فى المجلس الواحد أكثر من سبعين مرة .

الجزء التاسع — سورة الأعراف

قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي
فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا
لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ
شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ
دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ
فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟
بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟
سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ
ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ
عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ
سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ
فِيٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا
رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

١٦٨

معانى الكلمات :

الألواح : ألواح التوراة . **سبيل الرشد** : طريق الهدى والصلاح . **حبطت** : بطلت .

عجلًا جسدًا: عجلًا أحمر من ذهب مجسد .

له خوار : له صوت كصوت البقر عندما يمر به الهواء . **سُقط فى أيديهم** : ندموا أشد الندم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الهداية والرسالة اصطفاء من الله للبشر .

٢ ـ أن نعلم أن الواجب أن تؤخذ أوامر الله بقوة وعزم وجد .

٣ ـ أن نعلم أنه لا ينال الهداية ولا العلم حيى ولا مستكبر .

المحتوى التربوى :

تتواصل الآيات ويتلقى موسى رحمة الله مرة أخرى ؛ فإذا هو يتلقى من ربه البشرى ، بشرى الاصطفاء مع التوجيه له بالرسالة إلى قومه بعد الخلاص ، وأمره الله ـ عز وجل ـ بأخذ ما آتاه، والشكر على الاصطفاء والعطاء ، وهو أمر التعليم والتوجيه لما ينبغى أن تُقابل به نعمة الله ، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم قدوة للناس ؛ وعلى الناس أن يأخذوا ما آتاهم الله بالقبول والشكر استزادة من النعمة وإصلاحًا للقلب ، وتحرزًا من البطر ، واتصالًا بالله .

ثم يأتى الحديث عن الألواح التى حوت من كل شىء موعظة وتفصيلًا .

ويقول صاحب الظلال : « وتختلف الروايات والمفسرون فى شأن هذه الألواح ؛ ويصفها بعضهم أوصافًا مفصلة ـ نحسب أنها منقولة عن الإسرائيليات التى تسربت إلى التفسير ، ولا نجد فى هذا كله شيئاً عن رسول الله ﷺ ، فنكتفى بالوقوف عند النص القرآنى الصادق ، ولا نتعداه » .

والأمر الإلهى الجليل لموسى عليه السلام أن يأخذ الألواح بقوة وعزم ، وأن يأمر قومه أن يأخذوا بها فيها من التكاليف الشاقة بوصفه الأحسن لهم والأصلح لحالهم ، والعقيدة أمر هائل عند الله ـ سبحانه ـ وفى حساب الكون ويجب أن يؤخذ بقوة ، وأن تكون له جديته فى النفس ، وصراحته وحسمه .

يقول صاحب المنار : « والعبرة التى يجب أن يتذكرها ويتدبرها كل قارئ لهذه الآية ... أن الكتاب الإلهى يجب يأخذه بقوة إرادة وجد عزيمة لتنفيذ ما هدى إليه من الإصلاح ، وتكوين الأمة تكوينا جديدًا صالحا ، ويتأكد ذلك فى الرسول المبلغ له ، والداعى إليه ، والمنفذ له بقوله وعمله ؛ ليكون لقومه فيه أسوة حسنة ، وتلك سنة الله تعالى فى سائر الانقلابات والتجديدات الاجتماعية والسياسية ، وإن لم تكن بهداية الدين ، والدين أحرج إلى القوة والعزيمة ؛ لأنه إصلاح للظاهر والباطن جميعا .

وقد أمر الله تعالى بنى إسرائيل بما أمر به رسولهم ﷺ من أخذ الكتاب أو ميثاق الكتاب بقوة أمرًا مقرونا بتهديدهم وتخويفهم من وقوع جبل الطور بهم ... وقد أخذ سلفنا القرآن بقوة فسادوا به جميع الأمم ... إن من يأخذ القرآن بقوة يكون القرآن حجة له فيسعد به فى الدنيا والآخرة ، ومن لا يأخذه بقوة يكون حجة عليه فيشقى بالإعراض عنه وهجر هدايته فى الدنيا والآخرة » .

وفى مقابل أخذ هذا الأمر بقوة يعد الله مُوسى وقومه أن يمكن لهم فى الأرض ، ويورثهم دار الفاسقين عن دينه،وفى نهاية مشهد التكليم يجىء بيان لعاقبة الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق، ويعرضون عن آيات الله وتوجيهاته ، يتضمن تصويرًا دقيقًا لطبيعة هذا الصنف من الناس ، ويعلن المولى ـ عز وجل ـ عن مشيئته فى شأن أولئك الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، ﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ إنه سيصرفهم عن آياته فلا ينتفعون بها ولا يستجيبون لها .. آياته فى كتاب الكون المنظور ، وآياته فى كتبه المنزلة على رسله وذلك بسبب أنهم كذبوا بآياته وكانوا عنها غافلين .

قال بعض السلف : لا ينال العلم حيى ولا مستكبر وقال آخر : من لم يصبر على ذل التعلم ساعة بقى فى ذل الجهل أبدًا ، وقال ذو النون : وأبى الله أن يكرم قلوب البطالين بمكنون حكمة القرآن .

ونعود مرة أخرى للسياق فيقرر أن الله ـ عز وجل ـ لم يظلم هذا الصنف من الخلق بهذا الجزاء المردى المؤدى إلى الهلاك فى الدنيا والآخرة ، إنما هو الجزاء الحق لمن يكذب بآيات الله ويغفل عنها ، ويتكبر فى الأرض بغير الحق ، ويتجنب سبيل الرشد حيثما رآه ، ويهرع إلى سبيل الغى حيثما لاح له فإنَّه بعمله جوزى ، وبسلوكه أورد مورد الهلاك ، وإنه لجزاء كذلك أن تحبط وتهلك أعمال الذين كذبوا بآيات الله ولقاء الآخرة .

وبينما كان موسى عليه السلام فى حضرة ربه ، فى ذلك الموقف الفريد ، الذى تستشرفه البصائر وتقصر عنه الأبصار ؛ وتدركه الأرواح وتحار فيه الأفكار ، كان قوم موسى من بعده يرتكبون وينتكسون ، ويتخذون لهم عجلًا جسدًا له خوار ـ لا حياة فيه ـ يعبدونه من دون الله !

وهذه هى طبيعة بنى إسرائيل التى ما تكاد تستقيم خطوة حتى تلتوى عن الطريق ، فلقد بادروا نبيهم من قبل أن يجعل لهم إلهًا يعكفون عليه بمجرد رؤيتهم لقوم وثنيين يعكفون على أصنام لهم ! فصدهم نبيهم عن ذلك الخاطر وردهم ردًا شديدًا . فلما خلوا إلى أنفسهم ، ورأوا عجلاً جسداً من الذهب لا حياة فيه كما تفيد كلمة جسد ، صنعه لهم السامرى ـ رجل من السامرة ـ كما سيجىء تفصيل قصته فى سورة طه واستطاع أن يجعله بهيئة بحيث يخرج صوتا كصوت خوار الثيران .

وهل أظلم ممن يعبد خلقاً من صنع أيدى البشر . والله خلقهم وما يصنعون ؟ ! وتقول الأحداث : إن هارون ﷺ كان فيهم ـ فلم يملك لهم ردًا عن هذا الضلال السخيف . وكان فيهم بعض عقلائهم فلم يملكوا زمام الجماهير الضالة المتدافعة على العجل ـ الجسد وبخاصة أنه من الذهب معبود إسرائيل الأصيل !

وكما يقول **صاحب الظلال** : وأخيرًا هدأت الهيجة ، وانكشفت الحقيقة ، وتبين السخف وجاءت نوبة الندم والإقرار ، فسقط فى أيديهم وانعدمت الحيلة فى دفع ما هو بصدده من أمر ، ولما رأى بنو إسرائيل أنهم صاروا بهذه النكسة ـ إلى موقف لا يملكون دفعه ، فقد وقع منهم وانتهى ! قالوا : ﴿ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ قال الزمخشرى : من شأن من اشتد ندمه وحسرته ، أن يعض يده غمًا ، فتصير يده مسقوطاً فيها ، لأن فاه قد وقع فيها .

وقال الفارسىُّ : ضربوا أكفهم على أكفهم من الندم ، فإن صح ذلك فهو إذاً من السقوط .

وأقسموا إنه لا يسعهم بعد هذا الذنب إلا رحمة ربهم التى وسعت كل شىء ، قائلين : لئن لم يرحمنا بقبول توبتنا والتجاوز عن جريمتنا ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾لسعادة الدنيا وهى الحرية والاستقلال فى أرض الموعد ، ولسعادة الآخرة وهى دار الكرامة والرضوان .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الدعوة إلى الله ، واقتفاء أثر المرسلين والانضمام إلى موكب الهداة والمخلصين اصطفاء من الله رب العالمين يستوجب الشكر بغية الثبات والاستزادة .

٢ ـ على الدعاة أن يأخذوا تكاليف الدعوة بعزم وقوة ؛ ليكونوا قدوة فى الإيمان والأعمال الصالحات .

٣ ـ التكبر على الله وعدم طاعته سبيل إلى الذل والجهل ، وكما قال بعض السلف : « لا ينال العلم حيى ولا مستكبر »

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى
مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ
أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟
يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى
رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟
ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ
وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ
تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى
نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ
مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ
قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَّ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ۖ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى
مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾
١٦٩

معانى الكلمات :

أسفا : حزينا أو شديد الغضب . **فلا تشمت** : فلا تسعد الأعداء . **الرجفة** : الصاعقة . **فتنتك** : محنتك وابتلاؤك .

سكت : هدأ وسكن . **أعجلتم** : هل سبقتم بعبادة العجل .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الغضب مذموم إلا لدين الله ، فإنه ضرورة حتى يستقيم أمر الدين .

٢ ـ أن نعلم أن الابتداع فى الدين سبب الذلة فى الدنيا ،والعذاب فى الآخرة.

٣ ـ أن نلتزم بآداب الدعاء مع الله فى البدء والختام .

المحتوى التربوى :

تورد هذه الآيات مشهدًا جديدًا بين موسى وقومه ، فعلى حين كان موسى بين يدى ربه فى مشهد جليل ، لا يدرى ما أحدث القوم بعده ، إلا أن ينبئه ربه بارتكاسة قومه فى حمأة الضلالة بعبادتهم العجل فعاد إلى قومه غضبان أسفا ، يبدو انفعال الغضب فى قوله وفعله ، وحق لموسى أن يغضب ، فالمفاجأة قاسية ، فبينما هو يرتقى بهم ويتلقى وحى الهداية ، ليرفع من قدرهم ، ويصلهم بهدى السماء ، يرتكسون هم فى حمأة الضلالة على عِجْلَ ، تركهم على الهدى فخلفوه بالضلال ، وتركهم على العبادة فخلفوه بعبادة عجل جسد له خوار !

ويسألهم متعجبًا أستعجلتم قضاء الله وعقابه ؟ وألقى الألواح التى كانت تحمل كلمات ربه . وهو لا يلقيها إلا وقد أفقده الغضب زمام نفسه ، وكذلك أخذه برأس أخيه يجره إليه ، وأخوه هو هارون العبد الصالح الطيب !

وتحكى الآيات أن هارون استجاش فى نفس موسى عاطفة الأخوة الرحيمة ؛ ليسكن منه الغضب ، ويكشف له عن طبيعة موقفه ، وأنه لم يأل جهدًا فى نصيحة القوم ومحاولة هدايتهم . ويستجيش وجدان الأخوة الناصرة المعينة ، حين يكون هناك الأعداء الذين يشمتون ، ويقرر له أنه لم يضل معهم ولم يكفر كفرانهم .

عندئذ تهدأ ثائرة موسى ﷺ ويتوجه إلى الله يطلب منه المغفرة له ولأخيه ، ويطلب الرحمة من أرحم الراحمين.

قال القاسمى : « **قال الزمخشرى** : لما اعتذر إليه أخوه ، وذكر له شماتة الأعداء قال : ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى ﴾ ليرضى أخاه ، ويظهر لأهل الشماته رضاه عنه فلا تتم لهم شماتتهم ، واستغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه ولأخيه أن عسى فَرّط فى حسن الخلافة ، وطلب ألا يتفرقا عن رحمته ، ولا تزال منتظمة لهما فى الدنيا والآخرة . **قال الجشمىُّ** : وتدل الآية على أن الأمر بالمعروف قد يسقط فى حال الخوف على النفس ، وفى الحال الذى يُعلم أنه لا ينفع لذلك قال هارون ﴿ ٱسْتَضْعَفُونِى ﴾. وتدل على أن الغضب والأسف على المبتدع محمود فى الدين ».

ثم يقرر الله أن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا ، فمن افترى بدعة ، فإن ذل البدعة ، ومخالفة الرسالة على كتفيه كما قال الحسن البصرى : إن ذل البدعة على أكتافهم ، وإن هملجت بهم البغال ، وطقطقت بهم البراذين .

ذلك مع قيام القاعدة الدائمة : إن الذين يعملون السيئات ثم يتوبون يغفر الله لهم برحمته ، وبنو إسرائيل ارتكبوا الخطيئة بعد الخطيئة ، وسامحهم الله المرة بعد المرة ، حتى انتهوا إلى الغضب الدائم واللعنة الأخيرة وهذا جزاء كل المغترين إلى يوم الدين .

يقول صاحب الظلال : « إذا بدا فى فترة من فترات التاريخ أنهم يطغون فى الأرض (يعنى بنى إسرائيل) ويستعلون بنفوذهم على الأمميين ... ، وأنهم يستذلون بعض عباد الله ويطردونهم من أرضهم وديارهم فى وحشية ، والدول الضالة تساندهم وتؤيدهم إلى آخر ما نراه فى هذا الزمان ، فليس هذا بناقض لوعيد الله لهم ... إنما هم يستطيلون على الناس فى فلسطين مثلا لأن الناس لم يعد لهم دين ... إنهم يتفرقون ويتجمعون تحت رايات قومية جنسية ، ولا يتجمعون تحت راية العقيدة الإسلامية ، وهم من ثم يخيبون ويفشلون .. . ولكن هذا كله لن يدوم ستجىء الصحوة من هذه الغيبوبة » .

ثم نبه ـ تعالى ـ عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل التوبة من أى ذنب كان ، ولو كفراً .

ونعود ثانية بعد التعقيب على مصير الذين اتخذوا العجل وافتروا على الله ، إلى استئناف القصة ، فإذا نحن أمام مشهد جديد يصور هدوء موسى ﷺ وسكوت الغضب عنه وأخذه الألواح التى كان قد ألقاها بسبب دفع الغضب له وسيطرته عليه ، ويقرر السياق مرة أخرى أن هذه الألواح فيها هدى ورحمة لمن يخشون ربهم ويرهبونه .

وتمضى الآيات لتحكى لنا مشهدًا جديدًا وهو مشهد موسى وسبعين من قومه مختارين للقاء ربه .

ويقول صاحب الظلال : وتختلف الروايات فى سبب هذا الميقات وبما كان لإعلان التوبة ، وطلب المغفرة لبنى إسرائيل مما وقعوا فيه من الكفر والخطيئة ـ وفى سورة البقرة أن التكفير الذى فرض على بنى إسرائيل هو : أن يقتلوا أنفسهم ، فيقتل المطيع منهم من عصى ؛ وقد فعلوا حتى أذن الله لهم بالكف عن ذلك وقبل كفارتهم ـ وهؤلاء السبعون كانوا من خيرتهم .

ومع هذا فما الذى كان هؤلاء المختارين ؟ لقد أخذتهم الرجفة فصعقوا ذلك أنهم كما ورد فى السورة الأخرى طلبوا إلى موسى أن يروا الله جهرة ، ليصدقوه فيما جاءهم به من الفرائض فى الألواح . وهى شاهدة بطبيعة بنى إسرائيل التى تشمل خيارهم وشرارهم ، ولا يتفاوتون فيها إلا بمقدار . وأعجب شىء أن يقولوها فى مقام التوبة والاستغفار !

فأما موسى ـ عليه السلام ـ فقد توجه إلى ربه ، يتوسل إليه ، ويطلب المغفرة والرحمة ، ويعلن الخضوع والاعتراف بالقدرة، والتسليم المطلق يقدمه بين يدى دعائه لربه أن يكشف عن القوم غضبه ، وأن يرد عنهم فتنته ، وألا يهلكهم بفعلة السفهاء منهم .

ويقول صاحب الظلال : « وهكذا قدم موسى عليه السلام لطلب المغفرة والرحمة بالتسليم لله والاعتراف بحكمة ابتلائه ، وختمه بإعلان الرجعة إلى الله والالتجاء إلى رحابه فكان دعاؤه نموذجاً لأدب العبد الصالح فى حق الرب الكريم ونموذجاً لأدب الدعاء فى البدء والختام » .

ويقول ابن القيم فى إغاثة اللهفان : « إن هذا استعطاف من موسى عليه السلام لربه وتوسل إليه بعفوه عنهم من قبل ، حتى عبد قومهم العجل ، ولم ينكروا عليهم يقول موسى . إنهم قد تقدم منهم ما يقتضى هلاكهم ؛ ومع هذا فوسعهم عفوك ومغفرتك ، ولم تهلكهم ، فليسعهم اليوم ما وسعهم من قبل ، ثم قال نبى الله : ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾ قال ابن الأنبارى وغيره : هذا استفهام على معنى الجحد أى لست تفعل ذلك . والسفهاء هنا عبدة العجل» .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الذين يعملون القبائح والآثام ، ثم يتوبون ويرجعون إلى الله نادمين مداومين على الإيمان والإخلاص فيه يغفر الله لهم ويقبل توبتهم ؛ لأن الله غفور رحيم .

٢ ـ الغضب لله ولدينه ضرورة حتى يستقيم أمر الدين ، وإلا فهو مذموم .

٣ ـ على الدعاة ـ دائمًا ـ اللجوء إلى الله ، وطلب المغفرة منه ، والتسليم المطلق بقدرته والالتزام بآداب الدعاء فى البدء والختام .

٤ ـ كتب الله الذل والصغار على بنى إسرائيل فى الدنيا جزاء ضلالهم وكذبهم على الله .

۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا
هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى
وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ
ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ
فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ
عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ
ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ
عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟
ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى
لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ
فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ
وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾
وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

١٧٠

معانى الكلمات :

هدنا إليك : تبنا ورجعنا إليك .

الأغلال : التكاليف الشاقة .

إصرهم : عهدهم بالعمل بما فى التوراة .

به يعدلون : يحكمون بالحق .

عزروه : عظموه ووقروه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف صفات المتقين الذين سينالون رحمة الله فى الآخرة .

٢ ـ أن نعلم أن رسالة الإسلام وشريعته أسهل وأيسر الشرائع .

٣ ـ أن نعرف حقيقة هذا الدين ، وواجبنا تجاه تكاليفه وأوامره .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يجيء الجواب لموسى عليه السلام تقريرًا لطلاقة المشيئة، التى تضع الناموس اختياراً، وتجريه اختياراً : وإن كانت لا تجريه إلا بالعدل والحق على سبيل الاختيار أيضًا ، لأن العدل صفة من صفاته ـ تعالى ـ لا تتخلف فى كل ما تجرى به مشيئته ؛ لأنه هكذا أراد ، فالعذاب يصيب به من يستحق عنده العذاب ، وبذلك تجرى مشيئته ، أما رحمته فقد وسعت كل شيء ؛ وهى تنال من يستحقها عنده كذلك ، ولا تجرى مشيئته ـ سبحانه ـ بالعذاب ، أو بالرحمة جزافاً ، أو مصادفة ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

قال الجشمى : تدل الآية على حسن سؤال نعيم الدنيا كما يحسن سؤال نعيم الآخرة ، وتدل على أن الواجب على الداعى أن يقرن بدعائه التوبة والإخلاص؛ لذلك قالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ ، وتدل على أنه تعالى ينعم على البر والفاجر ، ويخص بالثواب المؤمن فلذلك فصل ، وتدل على أن الرحمة لا تنال بمجرد بالإيمان الذى هو التصديق حتى ينضم إليه الطاعات » .

وقال أبو منصور : « ما من أحد مسلم وكافر إلا وعليه من آثار رحمته فى هذه الدنيا ، بها يتعيشون ويؤاخون ، ويوادون ، وفيها ينقلبون ، لكنها للمؤمنين خاصة فى الآخرة ، لا حظ للكافر فيها ، وذلك قوله : ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أى : معصية الله والخلاف له » .

ويطلع الله نبيه موسى على طرف من الغيب المقبل ، إذ يطلعه على نبأ الملة الأخيرة التى سيكتب الله لها رحمته التى وسعت كل شىء ؛ **ويقول صاحب الظلال** : وإنه لنبأ عظيم ، يشهد بأن بنى إسرائيل قد جاءهم الخبر اليقين بالنبى الأمى ، على يدى نبيهم موسى ونبيهم عيسى ـ عليهما السلام ـ منذ أمد بعيد جاءهم الخبر اليقين ببعثه ، وبصفاته ، وبمنهج رسالته ، وبخصائص ملته فهو « النبى الأمى » وهو يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وهو يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، وهو يضع عمن يؤمنون به من بنى إسرائيل الأثقال والأغلال التى علم الله أنها ستفرض عليهم بسبب معصيتهم ، فيرفعها عنهم النبى الأمى حين يؤمنون به ، وأتباع هذا النبى يتقون ربهم ، ويخرجون زكاة أموالهم ، ويؤمنون بآيات الله ، وجاءهم الخبر اليقين بأن الذين يؤمنون بهذا النبى الأمى ، ويعظمونه ويوقرونه ، وينصرونه ويؤيدونه ، ويتبعون النور الهادى الذى معه ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : « وبذلك البلاغ المبكر لبنى إسرائيل ـ على يد نبيهم موسى عليه السلام كشف لله ـ سبحانه ـ عن مستقبل دينه ، وعن حامل رايته ، وعن طريق أتباعه وعن مستقر رحمته ، فلم يبق عذر لأتباع سائر الديانات السابقة ،بعد ذلك البلاغ المبكر بالخبر اليقين »

وهذا الخبر اليقين من رب العالمين لموسى عليه السلام والسبعين المختارين من قومه فى ميقات ربه ـ يكشف كذلك عن مدى جريمة بنى إسرائيل فى استقبالهم لهذا النبى الأمى وللدين الذى جاء به، وفيه التخفيف عنهم والتيسير ، إلى جانب ما فيه من البشارة بالفلاح للمؤمنين !

قال القاسمى : **قال الجشميُّ** : تدل الآية ـ السابقة ـ على أن شريعته أسهل الشرائع ، وأنه وضع عن أمته كل ثقل كان فى الأمم الماضية . وذلك نعمة عظيمة على هذه الأمة ، وتدل على وجوب تعظيم الرسول ، ونصره بالجهاد ، ونصرته بنصرة دينه ، وكل أمر يؤدى إلى توهين ما يتصل بذلك ، لأن جميع ذلك من باب النُصرة . وهذا لا يختص بعصره فجميع ذلك لازم إلى انقضاء التكليف . ولعل الجهاد بالبيان ، وإيراد الحجة ، ووضع الكتب فيه ، وحلّ شبه المخالفين ، يزيد فى كثير من الأوقات على الجهاد بالسيف ، ولهذا قلنا : (منازل العلماء فى ذلك أعظم المنازل» أ . هـ .

وقبل أن يمضى السياق إلى مشهد جديد من مشاهد القصة ، يقف عند هذا البلاغ المبكر ، يوجه الخطاب إلى النبى الأمى ﷺ يأمره بإعلان الدعوة إلى الناس جميعًا ، تصديقًا لوعد الله القديم ؛ فرسالة الإسلام هى الرسالة الأخيرة ، الشاملة ، التى لا تختص بقوم ، ولا أرض ، ولا جيل ، ويؤمر النبىﷺ أن يعرف الناس جميعًا بربهم الحق ـ سبحانه ؛ فالرسول ﷺ رسول الناس جميعًا من ربهم الذى يملك هذا الوجود كله ـ وهم من هذا الوجود ـ والذى يتفرد بالألوهية وحده ، فالكل له عبيد ، والذى تتجلى قدرته وألوهيته فى أنه الذى يحيى ويميت ، والذى يملك

الوجود كله ، والذى له الألوهية على الخلائق وحده ، والذى يملك الحياة والموت للناس جميعًا ، وهو الذى يستحق أن يدين الناس بدينه الذى يبلغه إليهم رسوله فهو تعريف للناس بحقيقة ربهم ، لتقوم على هذا التعريف عبوديتهم له ، وطاعتهم لرسوله .

ويقول صاحب المنار : « وبعد أن أمرهم بالإيمان أمرهم بالإسلام فقال ﴿ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أى : واتبعوه بالإذعان الفعلى لكل ما جاءكم به من أمر الدين فعلاً وتركا ، رجاء اهتدائكم بالإيمان وباتباعه لما فيه سعادتكم فى الدنيا والآخرة ، فثمرة الإيمان والإسلام اهتداء صاحبهما ووصوله بالفعل لسعادة الدارين ، ودليله الفعلى فى الدنيا أنه ما آمن من قوم نبى إلا وكانوا بعد الإيمان به خيراً مما كانوا قبله من هناء المعيشة والعزة والكرامة فى دنياهم ، وليس هناك رجاء فى أن يهتدى الناس بما يدعوهم إليه ﷺ إلا ـ باتباعه فيه ، ولا يكفى أن يؤمنوا به فى قلوبهم ما لم يتبع الإيمان العملى .

ويقول صاحب الظلال : « إن هذا الدين يعلن عن طبيعته وعن حقيقته فى كل مناسبة ، إنه ليس مجرد عقيدة تستكن فى الضمير ، كما أنه كذلك ليس مجرد شعائر تؤدى وطقوس إنما هو الاتباع الكامل لرسول الله ﷺ فيما يبلغه عن ربه ، وفيما يشرعه ويسنه . والرسول لم يأمر الناس بالإيمان بالله ورسوله فحسب ، ولم يأمرهم كذلك بالشعائر التعبدية فحسب ، ولكنه أبلغهم شريعة الله فى قوله وفعله . ولا رجاء فى أن يهتدى الناس إلا إذا اتبعوه فى هذا كله ، فهذا هو دين الله ، وليس لهذا الدين من صورة أخرى إلا هذه الصورة التى تشير إليها هذه اللفتة : ﴿ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ بعد الأمر بالإيمان بالله ورسوله .

ولو كان الأمر فى هذا الدين أمر اعتقاد وكفى ، لكان فى قوله : ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ الكفاية ! .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ إذا لم يأخذ الصالحون على أيدى المفسدين ، ولم يمنعوا الظالمين من ظلمهم ؛ أوشك الله أن يعمهم جميعًا بعقاب من عنده .

٢ ـ ينال رحمة ـ الله ـ تعالى ـ المتقون من عباده ، والذين يخرجون زكاة أموالهم ؛ ويكثرون من الصدقات ، ويحرصون على الإيمان بآيات الله ، وعلى اتباع الرسول مع توقيره ونصرته واتباع النور الذى أنزل معه ، ويفوزون كذلك بالفلاح والنجاح فى الدنيا والآخرة .

٣ ـ الإسلام دين يسر وسماحة ، وقد خفف الله ـ تعالى ـ عن هذه الأمة كثيرًا من التكاليف الشاقة التى كلف الله بها من كان قبلهم .

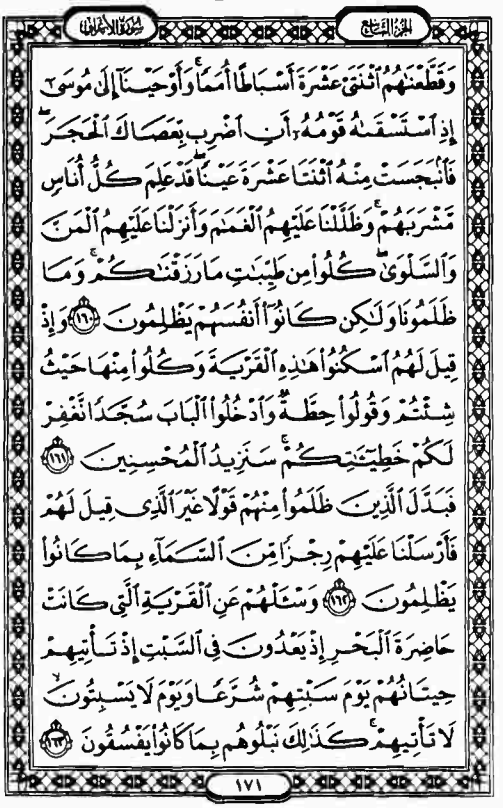
وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ
إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ
فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ
مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ
وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا
ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ
قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ
شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ
لَكُمْ خَطِيٓـَٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾
فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟
يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ
حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ۘ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ
حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ
لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾
١٧١

معانى الكلمات :

قطعناهم : فرقناهم . **أسباطاً** : جماعات .

فانبجست : فانفجرت . **الغمام** : السحاب الأبيض . **المن** : مادة صمغية حلوة كالعسل . **السلوى** : طائر يسمى السُّمانى .

قولوا حطة : سألتنا حط ذنوبنا عنا .

حاضرة البحر : قريبة من البحر .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف طبائع اليهود وحيلهم لنحذرهم ولا نقلدهم .

٢ ـ ألا نستحل محارم الله بأدنى الحيل لئلا نتعرض لغضبه وعذابه .

٣ ـ أن نقابل نعم الله بالشكر ولا نكفرها كما فعلت بنو إسرائيل .

المحتوى التربوى :

نواصل مع الآيات مشهدًا جديدًا من أحداث قصة موسى عليه السلام ، حيث تحوطهم رعاية الله فبعد أن كفروا وعبدوا العجل ، ثم كفروا عن الخطيئة كما أمرهم الله ، تاب عليهم ، وبعد أن طلبوا رؤية الله جهرة ، فأخذتهم الرجفة ، ثم استجاب الله لدعاء موسى فأحياهم تتجلى هذه الرعاية فى تنظيمهم حسب فروعهم فى اثنتى عشرة أمة ـ أى جماعة كبيرة ـ ترجع كل جماعة منها إلى حفيد من حفداء جدهم يعقوب ـ وهو إسرائيل ـ وقد كانوا محتفظين بأنسابهم على الطريقة القبلية

وتبدو هذه الرعاية الإلهية فى تخصيص عين تشرب منها كل جماعة وتعيينها لهم ، فلا يعتدى بعضهم على بعض ، وتبدو فى تظليل الغمام لهم من شمس هذه الصحراء المحرقة ؛ وإنزال المن والسلوى ، وتيسيره لهم ضماناً لطعامهم بعد ضمان شرابهم ، وكذلك فى إباحة كل هذه الطيبات لهم ، حيث لم يكن قد حرّم الله عليهم بعد شيئا بسبب عصيانهم.

والرعاية واضحة فى هذا كله ؛ ولكن هذه الطبيعة ما تزال بعد عصية على الهدى والاستقامة كما يبدو من ختام الآيات : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

قال صاحب المنار : « وما ظلمونا بكفرهم بهذه النعم ، ولكن كان دأبهم ظلم أنفسهم دون ربهم الذى لا يناله تأثير أحد بظلم ولا غيره ، فكانوا يجنون على أنفسهم بكفر النعم والجحود وغيرها آنا بعد آن وجيلا بعد جيل ، كما هو مبين فى القرآن بالإجمال وفى التوراة بالتفصيل ، فتقديم أنفسهم على يظلمون المفيد لقصر ظلمهم عليها ، إنما هو لبيان أن كفرهم بنعمه ـ تعالى يضرهم ولا يضره » .

وننظر كيف تلقى بنو إسرائيل رعاية الله لهم بالظلم والتبديل فلقد عفا الله عنهم بعد اتخاذهم العجل ، وعفا عنهم بعد الرجفة على الجبل ، ولقد أنعم عليهم بكل تلك النعم ، ثم هاهم أولاء يؤمرون بدخول قرية بعينها ـ أى مدينة كبيرة ـ لا يعين القرآن اسمها ـ لأنه لا يزيد فى مغزى القصة شيئاً ـ وتباح لهم خيراتها جميعًا ، على أن يقولوا دعاء بعينه وهم يدخلونها ؛ وعلى أن يدخلوا بابها سجداً ، إعلانًا للخضوع لله فى ساعة النصر والاستعلاء ـ وذلك كما دخل رسول الله ﷺ مكة فى عام الفتح ساجداً على ظهر دابته ـ وفى مقابل طاعة الأمر يعدهم الله أن يغفر لهم خطيئاتهم ، وأن يزيد للمحسنين فى حسناتهم ، فإذا فريق منهم يبدلون صيغة الدعاء التى أمروا بها ، ويبدلون الهيئة التى كلفوا أن يدخلوا عليها .. لماذا ؟ تلبية للانحراف الذى يلوى نفوسهم عن الاستقامة . ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ .

عندئذ يرسل الله عليهم من السماء عذابًا .. السماء التى تنزل عليهم منها المن والسلوى وظللهم فيها الغمام !

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾ وهكذا كان ظلم فريق منهم ـ أى : كفرهم ـ ظلماً لأنفسهم بما أصابهم من عذاب الله ، وتتكرر معهم المعصية والخطيئة ، ولكنهم هذه المرة لا يخالفون الأمر جهرة ولكنهم يحتالون على النصوص ليفلتوا منها ! ويأتيهم الابتلاء فلا يصبرون عليه ؛ لأن الصبر على الابتلاء يحتاج إلى طبيعة متماسكة فى تملك الارتفاع عن الأهواء والأطماع .

قال صاحب المنار : « إن الله تعالى أنزل القرآن هدى وموعظة ، وجعل قصص الرسل فيه عبرة وتذكرة ، لا تاريخ شعوب ومدائن ، ولا تحقيق وقائع ومواقع ، والعبرة فى هذه القصة أن نتقى الظلم والفسق ، ونعلم أن الله يعاقب الأمم على ذنوبها فى الدنيا قبل الآخرة ، وأنه قد عاقب بنى إسرائيل بظلمهم ، ولم يمل دون عقابه ما كان لهم من المزايا والفضائل ، وكثرة وجود الأنبياء فيهم » .

ويأمر الله ـ سبحانه ـ رسوله ﷺ أن يسأل اليهود عن واقعة القرية التى كانت حاضرة البحر ، وهى معلومة لهم فى تاريخ أسلافهم ؛ وهو يواجههم بهذا التاريخ بوصفهم أمة متصلة الأجيال ، ويذكرهم بعصيانهم القديم ، وما جره على فريق منهم من المسخ فى الدنيا ؟ وما جره عليهم جميعاً

من كتابة الذل عليهم والغضب أبداً .. اللهم إلا الذين يتبعون الرسول النبى ، فيرفع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم .

ولا يذكر اسم القرية التى كانت حاضرة البحر ؛ فهى معروفة للمخاطبين ! فأما الواقعة ذاتها فقد كان أبطالها جماعة من بنى إسرائيل يسكنون مدينة ساحلية ، وكان بنو إسرائيل قد طلبوا أن يجعل لهم يوم راحة يتخذونه عيدًا للعبادة ؟ ولا يشتغلون فيه بشؤون المعاش فجعل لهم السبت، ثم كان الابتلاء ليربيهم الله ، ويعلمهم كيف تقوى إرادتهم على المغريات والأطماع ؛ وكيف ينهضون بعهودهم حين تصطدم بهذه المغريات والأطماع .

وكان ذلك ضرورياً لبنى إسرائيل الذين تخلخلت شخصياتهم وطباعهم بسبب الذل الذى عاشوا فيه طويلاً ، ولابد من تحرير الإرادة بعد الذل والعبودية لتعتاد الصمود والثبات . فضلاً على أن هذا ضرورى لكل من يحملون دعوة الله ؛ ويؤهلون لأمانة الخلافة فى الأرض ، وقد كان اختبار الإرادة والاستعلاء على الإغراء هو أول اختبار وجه من قبل إلى آدم وحواء ..فلم يصمدا له ، واستمعا لإغراء الشيطان بشجرة الخلد وملك لا يبلى ! ثم ظل هو الاختبار الذى لابد أن تجتازه كل جماعة قبل أن يأذن الله لها بأمانة الاستخلاف فى الأرض ، إنما يختلف شكل الابتلاء ولا تتغير فحواه !

ولم يصمد فريق من بنى إسرائيل ـ فى هذه المرة ـ للابتلاء الذى كتبه الله عليهم بسبب ما تكرر قبل ذلك من فسوقهم وانحرافهم . لقد جعلت الحيتان فى يوم السبت تتراءى لهم على الساحل ، قريبة المأخذ ، سهلة الصيد ، فتفوتهم وتفلت من أيديهم بسبب حرمة السبت التى قطعوها على أنفسهم ! فإذا مضى السبت ، وجاءتهم أيام الحل . لم يجدوا الحيتان قريبة ظاهرة . كما كانوا يجدونها يوم الحرم !وهذا ما أمر رسول الله ﷺ أن يذكرهم به،ويذكرهم ماذا فعلوا وماذا لاقوا .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ ألا نستغرب رفض اليهود لدعوة الله ، فلقد كانت تأتيهم الآيات والبراهين والنعم جهارًا واضحات وكانوا يكفرون بالله ورسوله ، ويتحايلون على شرع الله .

٢ ـ الإشعار لهذه الأمة بألا تظلم نفسها بمعصية ربها ، وترك شكره ، وعدم تنفيذ أوامره ، كما فعلت بنو إسرائيل مع نعم الله وآياته . فعن أبى هريرة ﷺ ـ بإسناد جيد : أن رسول الله ﷺ قال : « لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل » .

٣ ـ مجىء قصة القرية التى كانت حاضرة البحر درس لمن خالف أمر الله بحيلة من الحيل، فإذا فهمنا هذا الدرس على ضوء محور السورة نفهم أن هدى الله المنزل يجب أن يطبق بقوة ، فليس الله كغيره ، ولا أمر الله كأمر غيره .

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ
عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾
فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ
وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ
﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ
﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن
يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ
لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ
ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ
وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ
وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا
وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ
أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ
خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ
بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

معانى الكلمات :

معذرة إلى ربكم : نعظكم اعتذاراً إلى الله .

بئيس : شديد .

عتوا : استكبروا .

تأذن ربك : أعلم وعزم .

يسومهم : يذيقهم .

خلف : بدل سوء .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف أهمية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وضوابطه .

٢ ـ أن ندرك أن ابتلاء الله لعباده رحمة وتذكير ووقاية من النسيان والاغترار .

٣ ـ أن نعطى قضية الآخرة والتقوى الأولوية فى حياتنا فهما أساس العقيدة فى الحياة .

المحتوى التربوى :

وتمضى الآيات تواصل قصة القرية التى كانت حاضرة البحر ؛ حيث راح فريق من سكان القرية يحتالون على السبت الذى حرم عليهم الصيد فيه ، وروى أنهم كانوا يقيمون الحواجز على السمك ويحوّطون عليه فى يوم السبت ؛ حتى إذا جاء الأحد سارعوا إليه فجمعوه ؛ وقالوا : إنهم لم يصطادوه فى السبت ، فقد كان فى الماء ـ وراء الحواجز ، غير مصيد !

وراح فريق منهم آخر يرى ما يفعلون من الاحتيال على الله ! فيحذر الفريق العاصى مغبة احتياله ! وينكر عليه ما يزاوله من الاحتيال ! بينما يمضى فريق آخر ثالث يقول للآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر : ما فائدة ما تزاولونه مع هؤلاء العصاة ، وهم لا يرجعون عما هم آخذون فيه ؟ وقد كتب الله عليهم الهلاك والعذاب ؟

فلم تعد هناك جدوى من الوعظ لهم ، ولم تعد هناك جدوى لتحذيرهم بعد ما كتب الله الهلاك عليهم أو العذاب الشديد ؛ بما اقترفوه من انتهاك لحرمات الله : ﴿ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ . فهو واجب لله نؤديه ـ واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والتخويف من انتهاك الحرمات ، لنبلغ إلى الله عذرنا ، ويعلم أن قد أدينا واجبنا . ثم لعل النصح يؤثر فى تلك القلوب العاصية فيثير فيها وجدان التقوى .

وقد انقسم سكان القرية الواحدة إلى ثلاث أمم : أمة عاصية محتالة ، وأمة تقف فى وجه المعصية والاحتيال وقفة إيجابية بالإنكار والتوجيه والنصيحة ، وأمة تدع المنكر وأهله ، وتقف موقف الإنكار السلبى ولا تدفعه بعمل إيجابى .

فلما لم يجد النصح ، ولم تنفع العظة ، وسدر السادرون فى غيهم ، حقت كلمة الله ، وتحققت نذره ، فإذا الذين كانوا ينهون عن السوء فى فجوة من السوء ، وإذا الأمة العاصية يحل بها العذاب الشديد ، فأما الفرقة الثالثة ـ أو الأمة الثالثة ـ فقد سكت النص عنها ... ربما تهوينا لشأنها .. وإن كانت لم تؤخذ بالعذاب ـ إذ إنها قعدت عن الإنكار الإيجابى، وقفت عند حدود الإنكار السلبى، فاستحقت الإهمال وإن لم تستحق العذاب .

ثم كان العذاب البئيس جزاء العصاة المحتالين ، جزاء إمعانهم فى المعصية ، التى يعتبرها النص كفرًا ، وجرت كلمة الله التى يجرى بها الخلق والتكوين ابتداء ، « كن» فصاروا قردة خاسئين ، ثم كانت اللعنة الأبدية على الجميع ـ إلا الذين يؤمنون بالنبى الأمى ويتبعونه ـ بما انتهى إليه أمرهم بعد فترة من المعصية التى لا تنتهى ؛ وصدرت المشيئة الإلهية بالحكم الذى لا راد له ولا معقب عليه : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ .

فهو إِذْنُ الأبد الذى تحقق منذ صدوره ؛ فبعث الله على اليهود فى فترات من الزمان من يسومهم سوء العذاب ، والذى سيظل نافذًا فى عمومه ، فيبعث الله عليهم بين أونة وأخرى من يسومهم سوء العذاب . وكلما انتعشوا وانتفشوا وطغوا فى الأرض وبغوا ، جاءتهم الضربة ممن يسلطهم الله من عباده على هذه الفئة الباغية النكدة ، الناكثة العاصية ، التى لا تخرج عن معصية إلا لتقع فى معصية ؛ ولاتثوب من انحراف حتى تجنح إلى انحراف .

ثم تمضى خطوات القصة مع خطوات التاريخ ، من بعد موسى وخلفائه مع الأجيال التالية فى بنى إسرائيل إلى الجيل الذى كان يواجه الرسول ﷺ والجماعة المسلمة فى المدينة ، فتحكى الآيات أن اليهود تفرقوا فى الأرض ، جماعات مختلفة المذاهب والتصورات ، مختلفة المشارب والمسالك ، فكان منهم الصالحون وكان منهم من هم دون الصلاح ، وظلت العناية الإلهية تواليهم بالابتلاءات . تارة بالنعماء وتارة بالبأساء ، لعلهم يرجعون إلى ربهم ، ويثوبون إلى رشدهم ، ويستقيمون على طريقهم .

ويقول صاحب الظلال : والمتابعة بالابتلاء رحمة من الله بالعباد ، وتذكير دائم لهم ، ووقاية من النسيان المؤدى إلى الاغترار والبوار .

ثم تتحدث الآيات عن خلف جاء بعد ذلك السلف من قوم موسى ، ويصفهم السياق بأنهم ورثوا الكتاب ودرسوه ، ولكنهم لم يتكيفوا به ولم تتأثر به قلوبهم ولا سلوكهم . شأن العقيدة حين تتحول إلى ثقافة تدرس وعلم يحفظ ، وكلما رأوا عرضًا من أعراض الحياة الدنيا تهافتوا

عليه ، ثم تأولوا وقالوا : ﴿ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ ، وهكذا كلما عرض لهم من أعراض الدنيا جديد تهافتوا عليه من جديد .

ويسأل الله ـ عز وجل ـ سؤال استنكار : ألم يؤخذ عليهم ميثاق الله فى الكتاب ألا يتأولوا ولا يحتالوا على النصوص ، وألا يخبروا عن الله إلا بالحق .. فما بالهم يقولون سيغفر لنا ويتهافتون على أعراض الحياة الدنيا ؟ ويبررون لأنفسهم هذا بالتقول على الله وتأكيد غفرانه لهم ، وهم يعلمون أن الله إنما يغفر لمن يتوبون حقًا ؛ ويقلعون عن المعصية فعلاً ؛ وليس هذا حالهم ؟ فهم يعودون كلما رأوا عرضًا من أعراض الحياة الدنيا ، وهم درسوا هذا الكتاب وعرفوا ما فيه !

ويقول صاحب الظلال : « بلى ! ولكن الدراسة لا تجدى ما لم تخالط القلوب وكم من دارسين للدين وقلوبهم عنه بعيدة، إنما يدرسونه ليتأولوا ويحتالوا ، ويحرفوا الكلم عن مواضعه، ويجدوا المخارج للفتاوى المغرضة التى تنيلهم عرض الحياة الدنيا ، وهل آفة الدين إلا الذين يدرسونه دراسة ، ولا يأخذونه عقيدة ؛ ولا يتقون الله ولا يرهبونه ؟ !

ولأن قضية الآخرة ، وقضية التقوى قضيتان أساسيتان فى العقيدة وفى الحياة ، يحيل السياق القرآنى المخاطبين الذين يتهافتون على عرض هذا الأدنى ـ عرض الحياة الدنيا ـ إلى العقل : ﴿ وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

ولو كان العقل هو الذى يحكم لا الهوى ،ولو كان العلم الحق لا الجهالة التى تسمى العلم هو الذى يقضى لكانت الدار الآخرة خيرًا من عرض هذا الأدنى ، ولكانت التقوى زاداً للدين والدنيا جميعاً .

والتمسك بالكتاب فى جد وقوة وصرامة ، وإقامة الصلاة ـ أى شعائر العبادة ـ هما طرفا المنهج الربانى لصلاح الحياة ، وتشير الآية إلى هذه الحقيقة : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ حقيقة أن الاستمساك الجاد بالكتاب عملاً ، وإقامة الشعائر عبادة هما أداة الإصلاح الذى لا يضيع الله أجره على المصلحين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ ضرورة القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر طاعة لله ـ تعالى ـ وأخذاً على يد المفسدين ، وتطهيرًا للمجتمع من ظلمهم وشرورهم ، وحتى ينتشر الخير ويعم السلام والأمن .

٢ ـ إذا أدى المصلحون دورهم وتمادى المفسدون فى إفسادهم ؛ فإن عقاب الله ـ تعالى ـ ينزل بالمفسدين وحدهم.

٣ ـ حرص اليهود على متاع الدنيا ، والوصول إليه بشتى الطرق ولو أدى بهم إلى ارتكاب المعاصى والذنوب .

٤ ـ ضرورة التمسك بما أنزل الله ، والمحافظة على الصلوات والإصلاح فى الأرض .

وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ
خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾
وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ
عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ
الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ
آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
﴿١٧٤﴾ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا
فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا
لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ
كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ
يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ
الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ اللَّهُ
فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾
١٧٣

معانى الكلمات :

نتقنا الجبل : رفعناه .

كأنه ظلة : كأنه سقف مرفوع .

انسلخ منها : كفر بها .

الغاوين : الضالين .

أخلد إلى الأرض : ركن إليها .

تحمل عليه : تشدد عليه وتمنعه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن التوحيد حقيقة مركوزة فى فطرة كل البشر .

٢ ـ أن نعرف الحكمة من إرسال الرسل بالرسالات .

٣ ـ أن نسخر العلم فى التعريف بالله ـ عز وجل ـ وطاعته وحسن عبادته .

المحتوى التربوى :

تحكى الآيات كيف أخذ الله على بنى إسرائيل الميثاق ، فلقد أُخذ فى ظرف لا يُنسى ! أخذ وقد نتق الله الجبل فوقهم كأنه ظلة ، وظنوا أنه واقع بهم ! ولقد كانوا متقاعسين يومها عن إعطاء الميثاق ؛ فأعطوه فى ظل خارقة هائلة كانت جديرة بأن تعصمهم بعد ذلك من الانتكاس ، ولقد أمروا فى ظل تلك الخارقة القوية أن يأخذوا ميثاقهم بقوة وجدية ، وأن يستمسكوا به فى شدة وصرامة ، وألا يتخاذلوا ولا يتهاونوا ولا يتراجعوا فى ميثاقهم الوثيق ،وأن يظلوا ذاكرين لما فيه ، لعل قلوبهم تخشع وتتقى ، وتظل موصولة بالله لا تنساه !

ولكن إسرائيل هى إسرائيل ! نقضت الميثاق ، ونسيت الله ، ولجت فى المعصية ، حتى استحقت غضب الله ولعنته وحق عليها القول ، بعدما اختارها الله على العالمين فى زمانها ، وأفاء عليها من عطاياه . فلم تشكر النعمة ، ولم ترع العهد ، ولم تذكر الميثاق ، وما ربك بظلام للعبيد .

ثم تتحدث الآيات عن قصة العهد الذى أخذه الله على ذرية بنى آدم ؛ أخرج ابن جرير وغيره ـ بإسناده ـ عن ابن عباس قال : « مسح ربك ظهر آدم ، فخرجت كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة فأخذ مواثيقهم ، وأشهدهم على أنفسهم : « ألست بربكم ؟ قالوا : بلى » على أن هناك تفسيراً لهذا النص بأن العهد الذى أخذه الله على ذرية بنى آدم هو عهد الفطرة .. فقد أنشأهم

مفطورين على الاعتراف له بالربوبية وحده ، وأودع هذا فطرتهم فهى تنشأ عليه ، حتى تنحرف عنه بفعل فاعل يفسد سواءها ، ويميل بها عن فطرتها .

وقال ابن كثير فى التفسير : قال قائلون من السلف والخلف : إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد .

وعقب المولى ـ عز وجل ـ على هذا الإشهاد بأنه أخذه حتى لا يكون هناك سبيل إلى أن يقول أحد : إنه غفل عن كتاب الله الهادى إلى التوحيد ، وعن رسالات الله التى دعت إلى هذا التوحيد، أو يقول : إننى خرجت إلى هذا الوجود ، فوجدت آبائى قد أشركوا فلم يكن أمامى سبيل لمعرفة التوحيد ، إنما ضل آبائى فضللت ، فهم المسؤولون وحدهم ولست بالمسؤول ! ومن ثم جاء هذا التعقيب على هذه الشهادة : ﴿ أَن تَقُولُوا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ .

يقول صاحب الظلال : « ولكن الله ـ سبحانه ـ رحمة منه بعباده ، لما يعلمه من أن فى استعدادهم أن يضلوا إذا أضلوا ، وأن فطرتهم هذه تتعرض لعوامل الانحراف ـ بفعل شياطين الجن والإنس ؛ الذين يعتمدون على ما فى التكوين البشرى من نقاط ضعف !

ومن رحمة من الله بعبادة قدر ألا يحاسبهم على عهد الفطرة هذا ؛ كما أنه لا يحاسبهم على ما أعطاهم من عقل يميزون به، حتى يرسل إليهم الرسل ، ويفصل لهم الآيات ، لاستنقاذ فطرتهم من الركام والتعطل والانحراف ، واستنقاذ عقلهم من ضغط الهوى والضعف والشهوات ولو كان الله يعلم أن الفطر والعقول تكفى وحدها للهدى دون رسل ولا رسالات ودون تذكير وتفصيل للآيات لأخذ عباده بها ، ولكنه رحمهم بعلمه فجعل الحجة عليهم هى الرسالة » .

وكمثل للانحراف عن سوء الفطرة ، ونقض لعهد الله المأخوذ عليها ، ونكوص عن آيات الله بعد رؤيتها والعلم بها ، ذلك الذى آتاه الله آياته ، فكانت فى متناول نظره وفكره ؛ ولكنه انسلخ منها ، وتعرى عنها ولصق بالأرض ، واتبع هواه فلم يستمسك بالميثاق الأول ، ولا بالآيات الهادية ؛ فاستولى عليه الشيطان ؛ وأمسى مطروداً من حمى الله، لا يهدأ ولا يطمئن ولا يسكن إلى قرار .

يقول صاحب الظلال : « إنه مشهد من المشاهد العجيبة .. إنسان يؤتيه الله آياته ، ويخلع عليه من فضله ، ويكسوه من علمه ، ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفاع ولكن هاهو ذا ينسلخ من هذا كله انسلاخاً. ينسلخ كأنما الآيات أديم له متلبس بلحمه ؛ فهو ينسلخ منها بعنف وجهد ومشقة ، انسلاخ الحى من أديمه اللاصق بكيانه ويتجرد من الغطاء الواقى ، وينحرف عن الهدى ليتبع الهوى ؛ ويهبط من الأفق المشرق فيلتصق بالطين المعتم، فيصبح غرضًا للشيطان لايقيه منه واق ، ولا يحميه منه حام فيتبعه ويلزمه ويستحوذ عليه ، ثم إذا نحن أولا أمام مشهد مفزع بائس نكدٍ .. إذا نحن بهذا المخلوق ، لاصقًا بالأرض ، ملوثًا بالطين . ثم إذا هو مُسخ فى هيئة كلب ، يلهث إن طورد ، ويلهث إن لم يطارد ، فإذا انتهى مشهد اللهاث الذى

لا ينقطع سمع التعليق المرهوب الموحى : ﴿ سَآءَ مَثَلاً ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ .

قال صاحب المنار : « إن من شأن من أوتى آيات الله تعالى أنه ترتقى نفسه ، وترتفع فى مراقى الكمال درجته لما فيها من الهداية والإرشاد والذكرى ، وإنما يكون ذلك لمن أخذ هذه الآيات وتلقاها بهذه النية : « وإنما لكل امرئ مانوى » وأما من لم ينو ذلك ، ولم تتوجه إليه نفسه ، وإنما تلقى الآيات الإلهية اتفاقا بغير قصد ، أو بنية كسب المال والجاه ، ووجد مع ذلك فى نفسه ما يصرفه عن الاهتداء بها فلن يستفيد منها ، وأسرع به أن ينسلخ منها ، فهو يقول لوشئنا لرفعناه بها لأنها فى نفسها هدى ونور ، ولكن تعارض المقتضى والمانع وهو إخلاءه إلى الأرض واتباع هواه .

وكم من عالم دين رأيناه يعلم حقيقة دين الله ثم يزيغ عنها ، ويعلن غيرها ، ويستخدمه علمه فى التحريفات المقصودة ، والفتاوى المطلوبة لسلطان الأرض الزائل ، يحاول أن يثبت بها هذا السلطان المعتدى على سلطان الله وحرماته فى الأرض جميعًا .

إنه مثل لكل من آتاه الله من علم الله ؛ فلم ينتفع بهذا العلم ؛ ولم يستقم على طريق الإيمان ، وانسلخ من نعمة الله. ليصبح تابعاً ذليلاً للشيطان ، ولينتهى إلى المسخ فى مرتبة الحيوان ، ويعقب السياق على هذا المثل بأن الهدى هدى الله ، فمن هداه الله فهو المهتدى حقاً ؛ ومن أضله الله فهو الخاسر الذى لا يربح شيئاً .

قال أبو السعود : « لما أمر النبى ﷺ بأن يقص قصص المنسلخ على هؤلاء الضالين الذين مثلهم كمثله ؛ ليتفكروا فيه ويتركوا ماهم عليه من الإخلاء إلى الضلالة ، ويهتدوا إلى الحق ـ عقب ذلك بتحقيق أن الهداية والضلالة من جهة الله عز وجل ، وإنما العظة والتذكير من قبيل الوسائط العادية فى حصول الاهتداء من غير تأثير لها فيه ، سوى كونها دواعى إلى صرف العبد اختياره نحو تحصيله .. » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ توحيد الله ـ تعالى ـ وإفراده بالعبودية فطرة فى النفس البشرية ، فطر الله الناس عليها منذ أن كانوا ذرات فى أصلاب آبائهم من آدم عليه السلام .

٢ ـ يجب أن ندعو الله دائماً بالخير ونتجنب الدعاء بالشر والإثم وقطيعة الأرحام .

٣ ـ يجب أن نحذر من الشيطان ووساوسه ، ومن الغرور بزينة الدنيا ومتعها ، ومن النفس الأمارة بالسوء وملذاتها .

٤ ـ العلم الذى لا يؤدى إلى طاعة الله ، علم بارد لا يعصم من الهوى ، ولا يرفع من ثقلة الشهوات شيئاً ، ولا يدفع الشيطان ، بل ربما ذلل له الطريق وعبدها .

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ
لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ
بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾
وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي
أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ
يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ
كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ
هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ
أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا
هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ
أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ
فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ
عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

معانى الكلمات :

ذرأنا : خلقنا . **يلحدون** : ينحرفون إلى الباطل . **أملى لهم** : أمهلهم . **جِنّة**: جنون . **طغيانهم** : تجاوزهم للحد . **يعمهون** : يتحيرون . **آيان مرساها** : متى وقوعها . **لا يجليها** : لا يظهرها . **ثقلت** : عَظُمت لشدتها . **حفى عنها** : باحث عنها عالم بها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العليا .

٢ ـ أن نعلم منزلة العلماء والدعاة إلى الله فى هذا الدين .

٣ ـ أن نستشعر أهمية المبادرة بالتوبة قبل مجىء الأجل .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يبين الله ـ عز وجل ـ أنه خلق للنار أهلها ـ وهو أعدل العادلين وأحكم الحاكمين وأهل النار هؤلاء المهيأون لدخولها ، قلوبهم لا تفقه لحق ولا تعقله ،وأعينهم لا تبصر الآيات ، وأسماعهم لا تسمع الموعظة ، فهم لا يسمعون الحق ولا يعونه ، ولا يبصرون الهدى ، كالأنعام السارحة التى لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا فى ما يقيتها ، بل هم أضل من الدواب ؛ لأن الدواب قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا ناداها ودعاها وإن لم تفقه كلامه ، ولأنها تفعل ما خلقت له ، إما بطبعها وإما بتسخيرها ، بخلاف الكافر فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده فكفر بالله وأشرك به ، ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة فى معاده .

قال أبو السعود : « المراد بهؤلاء الذين ذُرئوا لجهنم الذين حقت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة ، لكن لا بطريق الجبر ، من غير أن يكون من قبلهم ما يؤدى إلى ذلك ، بل لعلمه تعالى بأنهم لا يصرفون اختيارهم نحو الحق أبدًا ، بل يصرون على الباطل من غير صارف يلويهم ، ولا عاطف يثنيهم من الآيات والنذر ، فبهذا الاعتبار جعل خلقهم مغيًّا بها » .

ومن كفر به من البشر كانت الدواب أتم منه إذ ليس للأنعام قوة تحصيل تلك الكمالات، ودفع تلك النقائص ، وهم مع نالهم عن تلك القوة قد خلوا عن الكمالات، وعن دفع أضدادها، فكانوا أردأ حالا منها لنقصدهم مع وجود قوة الكمال فيهم ، وأيضا الأنعام تبصر منافعها ومضارها فتلزم بعض ما تبصره وهؤلاء أكثرهم معاند فيقدم على النار .

وهؤلاء هم أهل الغفلة عن الله وآياته ودينه وشريعته ،ولكى لا نكون كهؤلاء الغافلين عن آيات الله التى تدل على أسمائه الحسنى .

ذكرنا الله ـ عز وجل ـ بأن له الأسماء الحسنى ، وأمرنا أن نسميه بها ، وأن نترك الملحدين بأسمائه ، بالإعراض عنهم ، وانتظار ما أعد الله لهم من عذاب جزاء أعمالهم .

ونعود مرة أخرى للسياق فيأمر الله بإهمال المنحرفين ـ الذين كانوا يتمثلون فى المشركين الذين كانوا يواجهون دعوة الإسلام بالشرك ـ الذين يلحدون فى أسماء الله ويحرفونها ، ثم يمضى السياق يفصل صنوف الخلق .. بعدما ذكر منهم من قبل أولئك الذين ذرأهم الله لجهنم ، ومنهم هؤلاء الذين يلحدون فى أسماء الله ويحرفونها ، ثم إن منهم أمة يستمسكون بالحق ، ويدعون الناس إليه ، ويحكمون به ولا ينحرفون عنه ، وأمة ـ على الضد ـ ينكرون الحق ويكذبون بآيات الله ! فأما الأولون فيقرر وجودهم فى الأرض وجودًا ثابتًا لاشك فيه ، وهم حراس على الحق حين ينحرف عنه المنحرفون ، ويزيغ عنه الزائغون ؛ وحين يكذب الناس بالحق وينبذونه يبقون هم عليه صامدين .

يقول صاحب الظلال : إن صفة هذه الأمة ـ التى لا ينقطع وجودها من الأرض أيًا كان عددها ـ أنهم لا يهدون بالحق ، فهم دعاة إلى الحق لا يسكتون عن الدعوة به ، وإليه ، ولا يتقوقعون على أنفسهم ولا ينزوون بالحق الذى يعرفونه ، ولكنهم يهدون به غيرهم ، فلهم قيادة فيمن حولهم من الضالين عن هذا الحق ، المتنكرين لذلك العهد ، ولهم عمل إيجابى لا يقتصر على معرفة الحق ، إنما يتجاوزه إلى الهداية به والدعوة إليه والقيادة باسمه ، فيتجاوزون معرفة الحق والهداية به إلى تحقيق هذا الحق فى حياة الناس والحكم به بينهم ، تحقيقا للعدل الذى لا يقوم إلا بالحكم بهذا الحق .

والذين يلحدون فى هذا الدين يجدون مشقة فى تحويله عن طبيعته هذه الواضحة الصلبة ، وهم من أجل ذلك يوجهون إليه جهودًا لا تكل ، وحملات لا تنقطع .. وهم يصورون الإسلام الذى يحكم الحياة حادثا تاريخيا مضى ولا تمكن إعادته ، ولكن طبيعة هذا الدين الواضحة الصلبة ما تزال صامدة لهذه المعركة الضارية ، والأمة المسلمة القائمة على هذا الحق ـ على قلة العدد وضعف العدة ـ ما تزال صامدة لعمليات السحق الوحشية والله غالب على أمره » .

لذا واجه القرآن الكريم قومًا من المكذبين بآيات الله فى مكة بتهديد رعيب : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ .

ولقد كان الملأ من قريش يعلمون أنهم كاذبون ! وقد تضافرت الروايات على أنهم كانوا يعرفون الحق فى أمر رسول الله ﷺ ، وأنهم ما كانوا يملكون أن يمنعوا أنفسهم عن الاستماع لهذا القرآن والتأثر به أعمق التأثر مثل قصة الأخنس بن شريق ، وأبى سفيان بن حرب ، وعمرو بن هشام فى الاستماع لهذا القرآن خلسة ، ليالى ثلاثاً ، وما وجدوه فى أنفسهم منه معروفة .

والقرآن يدعوهم إلى التفكر والتدبر فى أمر صاحبهم هذا المعروف لهم ماضيه كله ، المكشوف لهم أمره كله أفهذا به جنة ؟ أفهذا قول مجنون وفعل مجنون ؟ كلا لا اختلاط فى عقله ولا فى قوله إنما هو منذر مفصح مبين .

ويدعوهم للنظر فى ملك الله وسلطانه فى السموات والأرض ، وفيما خلق من شىء فيهما ، ليتدبّروا ذلك ويعتبروا به ، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه ومن فعله لا ينبغى أن تكون العبادة والدين الخالص إلا لله . فيجب أن يؤمنوا به ، ويصدقوا رسوله ، ويعترفوا بالله وآياته ، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت ، فيهلكوا على كفرهم ، ويصيروا إلى عذاب الله ، وأليم عقابه .

ويبين الله ـ عز وجل ـ أن الأمر أمره ، فإن من كتب عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد ، ولا يضل الله إلا من يستحق الضلال ، فذلك الذى يتركه الله متخبطًا فى ظلمات الضلال ، ثم يبين لنا سخف هؤلاء إذ يتركون التفكير فيما ينبغى ، ويتركون العمل فيما ينبغى ، ويسألون عما لا تقدم أو تؤخر معرفته ، فهم يسألون عن الساعة عن وقت وقوعها وهم فى الأصل مكذبون ، فسؤالهم فى الحقيقة استبعاد لوقوعها وتكذيب بوجودها ومع أنهم مستبعدون ومكذبون فهم يتساءلون عن محطها ، وأول وقتها ، يسألون الرسول ﷺ عن ذلك كأنه من المتكلفين لمعرفة ما لم يرد الله أن يعرِّفه عليه ، وهنا يأمر الله رسوله ﷺ أن يجيبهم جوابين الجواب الأول : أن الساعة لا يعرف علمها أحد إلا الله . والجواب الثانى : أنه لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا بل هو مفوِّض أموره كلها إلى الله ، وهو تحت مشيئته ، وأنه لا يعلم المستقبل ولا اطّلاع له على شىء منه ، إلا بما أطلعه الله عليه .

إن أمر الساعة من الأمور التى لا يعلمها إلا الله عز وجل لم يطلع عليها ملك مقرب أو نبى مرسل ، وفى إخفاء وقتها رحمته بالمؤمنين حتى يكونوا متأهبين كل وقت ، إذ لو علم الإنسان وقت لكسلت النفس عن الطاعة وعن القيام بالتكاليف الربانية ، ولكنّ الله جلا وعلا جعل لكل إنسانٍ ساعته وهى لحظة الموت .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الله له الأسماء الحسنى ، فلا يجوز أن نسميه بما لا يليق به من كمال وجلال ، ولا بما لم يسم به نفسه .

٢ ـ الله ـ تعالى ـ يمهل الظالمين استدراجًا لهم ولا يهملهم ، بل يأخذهم بعذاب شديد .

٣ ـ يجب المبادرة بالتوبة قبل أن يأتى الأجل ، فلا يستطيع الإنسان أن يفعل شيئاً .

٤ ـ علم الساعة وما يحدث فيها من الأمور الغيبية التى لا يعلمها إلا الله ، ولم يطلع عليها ملكا مقربًا ، ولا نبيًا مرسلًا ، ولا أحدا من خلقه .

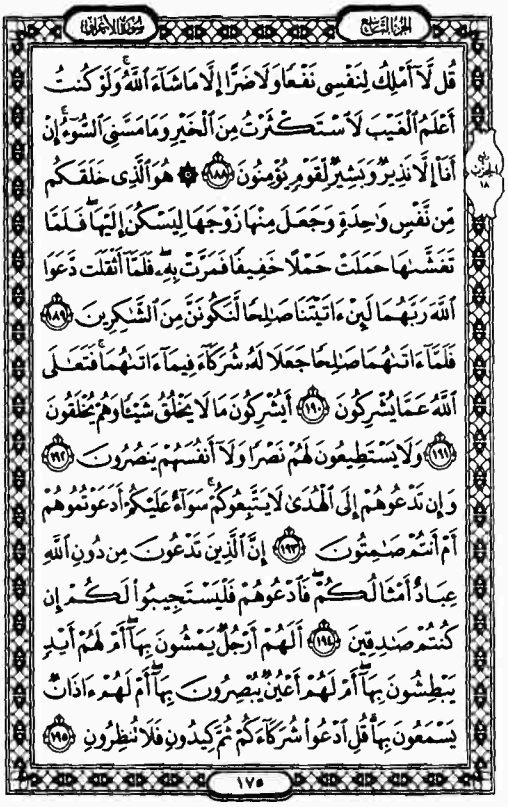
قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ
أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ
أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم
مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا
تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا
ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩
فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى
ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ
١٩١ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٢
وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ
أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ١٩٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن
كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ
يَبۡطِشُونَ بِهَآ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ
يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥
١٧٥

معاني الكلمات :

تغشاها : جامعها .

فمرت به : فاستمرت بغير تعب .

أثقلت : صارت ذات ثقل كبير.

صالحًا: ولدًا سليمًا .

جعلا له شركاء : بتسمية ولديهما عبد الحارث بوسوسة إبليس .

يبطشون : يأخذون الأشياء بشدة أو يعتدون بها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن ندرك خطورة الكلمة ومدلولها الحقيقى ونحذر عند قولها .

٢ ـ أن نوقن أن الغيب لا يعلمه إلا الله ولم يطلع الله عليه أحدًا سواه .

٣ـ أن نعتقد تمام الاعتقاد أنه لا سلطان فوق سلطان الله فلا معبود بحق سواه .

المحتوى التربوى :

توضح الآيات أن الرسول ﷺ وهو من هو . وقربه من ربه هو قربه ، مأمور أن يعلن للناس أنه أمام الغيب بشر من البشر ، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا ؛ لأنه لا يطلع على الغيب ، ولا يعرف الغايات قبل المذاهب ؛ ولا يرى مآل أفعاله ، ومن ثم لا يملك أن يختار عاقبة فعله . بحيث إن رأى العاقبة المغيبة خيرًا أقدم ، وإن رآها سوءًا أحجم . إنما هو يعمل ، والعاقبة تجيء كما قدر الله فى غيبه المكنون .

والرسول ﷺ نذير وبشير للناس أجمعين ، ولكن الذين «يؤمنون» هم الذين ينتفعون بما معه من النذارة والبشارة ، فهم الذين يفقهون حقيقة ما معه ، وهم الذين يدركون ما وراء هذا الذى جاء به ، ثم هم بعد ذلك خلاصة البشرية كلها ، كما أنهم هم الذين يخلص بهم الرسول من الناس أجمعين .

يقول صاحب الظلال : إن الكلمة لا تعطى مدلولها الحقيقى إلا للقلب المفتوح لها والعقل الذى يستشرفها ويتقبلها ، وإن هذا القرآن لا يفتح كنوزه ، ولا يكشف أسراره ولا يعطى ثماره ، إلا لقوم يؤمنون ، ولقد ورد عن بعض صحابة رسول الله ﷺ : كنا نؤتى الإيمان قبل أن نؤتى القرآن ، وهذا الإيمان هو الذى كان يجعلهم يتذوقون القرآن ذلك التذوق ، ويدركون معانيه وأهدافه ذلك الإدراك ، ويصنعون به تلك الخوارق التى صنعوها فى أقصر وقت من الزمان .

وتتحدث الآيات عن جولة جديدة فى قضية التوحيد ، لتصوير خطوات الانحراف من التوحيد إلى الشرك فى النفس ، فيذكرهم أنه هو الذى خلق جميع الناس من آدم وأنه خلق منه زوجه حواء . وأنه خلق منهما كل الأزواج ، وأن هؤلاء الأزواج إذا مارسوا ما خلقه الله فيهم وما هيأهم له مما فيه بقاء الجنس أنهم فى شوقهم إلى الولد، وفى حالة رهبهم من مسخه أو خطره، كانوا يطلبون من الله ويعدون الله من أنفسهم الشكر ، فإذا ما أعطاهما الله ما أرادا قابلاه بالشرك، وتعالى الله أن يكون له شريك فى ملكه وسلطانه وفى ألوهيته وربوبيته .

قال القاسمى : « هذه الآية سيقت توبيخا للمشركين فى جنايتهم بالشرك ، ونقضهم ميثاقهم فى جريهم على خلاف ما يعاهدون الله عليه ، وذلك أنه تعالى ذكر ما أنعم به عليهم من الخلق من نفس واحدة ، وجعل أزواجهم من أنفسهم ليأنسوا بهن ، ثم إنشائه إياهم بعد الغشيان ، متدرجين فى أطوار الخلق من العدم إلى الوجود ، ومن الضعف إلى القوة ، ثم بين إعطاءهم المواثيق إن آتاهم ما يطلبون ، وولد لهم ما يشتهون ليكونن من الشاكرين ، ثم أخبر عن غدرهم وكفرانهم هذه النعم التى امتن سبحانه بها عليهم ، ونقضهم ميثاقهم فى إفراده بالشكر ، حيث أشركوا معه غيره فى ذلك » .

فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ يقول صاحب الظلال : « الأصل فى التقاء الزوجين هو السكن والاستقرار ليظل هذا هو المحضن الأمين ، الذى يخرج منه الجيل البشرى الذى يحمل تراث التمدن البشرى ، ولم يُجعل شقاقًا ونزاعًا بين الاختصاصات والوظائف فلكلٍ من الزوجين مهام حددها الإسلام » .

ويقرر السياق أن الذى يخلق هو الذى يستحق أن يعبد ! وآلهتهم المدعاة ـ كلها ـ لا تخلق شيئًا بل هى تُخلق ! فكيف يشركون بها ؟ كيف يجعلون لها شريكًا مع الله فى نفوسهم وفى أولادهم . وإن الذى يملك أن ينصر عباده بقوته ويحميهم هو الذى ينبغى أن يعبد فالقوة والقهر والسلطان هى خصائص الألوهية وموجبات العبادة والعبودية . وآلهتهم المدعاة ـ كلها ـ لا قوة لها ولا سلطان ، فهم لا يستطيعون نصرهم ، ولا نصر أنفسهم فكيف يجعلون لها شريكاً مع الله فى نفوسهم وفى أولادهم .

يقول صاحب الظلال : « وما علمنا أن العرب فى وثنيتهم كانوا يشركون بآلهة من البشر ـ بمعنى أنهم يعتقدون بألوهيتهم أو يقدمون الشعائر التعبدية لهم ـ إنما كانوا يشركون بأمثال هؤلاء من ناحية أنهم يتلقون منهم الشرائع الاجتماعية والأحكام فى النزاعات ـ أى الحاكمية الأرضية . وأن القرآن يعبر عن هذا بالشرك ، ويسوى بينه وبين شركهم الآخر بالأوثان والأصنام سواء ، وهذا هو الاعتبار الإسلامى لهذا اللون من الشرك ، فهو شرك كشرك الاعتقاد والشعائر لا فرق بينه وبينه ، كما اعتبر الذين يتقلبون الشرائع والأحكام من الأحبار والرهبان مشركين ، مع أنهم لم يكونوا يعتقدون بألوهيتهم ولم يكونوا يقدمون لهم الشعائر كذلك ، فكله شرك وخروج عن التوحيد الذى يقوم عليه دين الله ، والذى تعبر عنه شهادة أن لاإله إلا الله » .

ثم يأمر الله رسوله ﷺ أن يتحدى هؤلاء المشركين بأن تستطيع آلهتهم أن تكيده ، شيئاً ثم أمره أن يعلن أن الله الذى أنزل عليه الكتاب هو يتولاه ويتولى الصالحين .

ويقول صاحب المنار ـ تعليقاً على قوله ـ تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ ـ والحق الذى لا معدل عنه أن الدعاء هنا هو النداء لدفع الضر أو جلب النفع الموجه إلى من يعتقد الداعى أن له سلطانا يمكنه أن يجيبه إلى ما طلبه بذاته أو يحمله للرب الخالق على ذلك بحيث يجيب دعاء الداعى لأجله .

يقول الله تعالى : إن الذين تدعونهم من دون الله هم عباد لله أمثالكم فى كونهم مخلوقين لله تعالى خاضعين لسننه فى خلقه ، وإذا كانوا أمثالكم امتنع عقلاً أن تطلبوا منهم ما لا تستطيعون نيله بأنفسكم ولا بمساعدة أمثالكم لكم فيما يتوقف على التعاون فى اتخاذ الأسباب له ، وإنما يدعى لما وراء الأسباب المشتركة بين الخلق والرب الخالق المسخر للأسباب الذى تخضع لإرادته الأسباب وهو لا يخضع لها ، ولا لإرادة أحد يحمله على ما لا يشاؤه منها .

وهذه المماثلة إنما تظهر فيمن يدعى عن دون الله تعالى من الملائكة أو الأنبياء أو الصلحاء ، دون ما اتخذ لهم تذكيرا بهم من التماثيل أو القبور أو الأصنام ، وقد صار بعض هذه المذكرات يقصد لذاته ، جهلا بما كانت اتخذت لأجله ، وفى هذه الحالة تدخل فى المماثلة بطريقة تنزيلها منزلة ما وضعت لأجله » .

وفى خاتمة سياق هذه الآيات يأمر الله نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء المرزوئين بعقولهم ، المحتقرين لنعم الله تعالى عليهم ، نادوا شركاءكم الذين اتخذتموهم أولياء وزعمتم أنهم فيكم شفعاء ، ثم تعانوا على كيدى جميعًا ، وأجمعوا مكركم الخفى لإيقاع الضر بى سريعاً ، فلا تنظرون أى لا تؤخرونى ساعة من نهار ، بعد إحكام المكر الكبّار ، وحكمة مطالبتهم بهذا أن العقائد والتقاليد الموروثة تتغلغل فى أعماق الوجدان ، حتى يتضاءل دونها كل برهان ، ويظل صاحبها مع ظهور الدليل على بطلانها يتوهم أنها تضر وتنفع ، وتقرب من الله وتشفع فطالبهم بأمر عملى يستل هذا الوهم من أعماق قلوبهم ، وهو أن ينادوا هؤلاء الشركاء نداء استغاثة واستنجاد لإبطال دعوة الداعى إلى الكفر بها . وإثبات العجز لها .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الله ـ تعالى ـ هو الضار النافع ولا يملك أحد لنفسه من دون الله نفعًا ولا ضرًا .

٢ ـ خلق الله الجنس البشرى من ذكر وأنثى ، وجعل بينهما الأنس والمودة والرحمة ؛ لينشأ فى ظلهما ورعايتهما النسل الصالح .

٣ ـ الأبوان مسؤولان عن حسن تربية أبنائهما وتنشئتهما على الدين .

٤ ـ التنديد بالشرك والمشركين ، وبيان جهل المشركين وسفههم ؛ إذ يعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يجيب ولا ينفع .

٥ ـ أن نعتقد تمام الاعتقاد أنه لا سلطان ولا قوة فوق سلطان الله ، فلا معبود بحق سواه فينبغي أن نفرده بالإخلاص والتوحيد وخالص الاعتقاد .

إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾
وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ
أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ
وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ
بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ
ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟
فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ
لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ
قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ
وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ
فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ
فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ
وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ
لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾

معانى الكلمات :

ينزغنك : يصرفنك .

نزغ : وسوسة أو صارف .

مسهم طائف : أصابتهم وسوسة ما .

لا يقصرون : لا يكفون عن إغوائهم .

اجتبيتها : اخترعتها من عندك .

بالغدو والآصال : فى أوائل النهار وآخره .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نأخذ بالعفو ونأمر بالعرف ونعرض عن الجاهلين .

٢ ـ أن نعلم آداب الاستماع إلى القرآن وتلاوته .

٣ ـ أن نلتزم بأوامر القرآن فى التعامل مع المشركين والجاهلين والمعاندين .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يوجه الله سبحانه رسوله ﷺ أن يتحدى المشركين ويتحدى آلهتهم العاجزة ـ كلها ، ويعلن عن عقيدته الناصعة فى تولى الله ـ وحده ـ له : وقال لهم : ألا يألوا جهدًا فى جمع كيدهم وكيد آلهتهم ؛ بلا إمهال ولا إنظار ! وقالها فى لهجة الواثق المطمئن إلى السند الذى يرتكن إليه ، ويحتمى به من كيدهم جميعاً ، فأعلن أنه يرتكن إلى الله .. الذى نزل الكتاب ..

ويقول صاحب الظلال معلقاً على هذا التحدى وهذا الإعلان : إنها لكلمة صاحب الدعوة إلى الله ـ بعد رسول الله ﷺ فى كل مكان وفى كل زمان : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ .. ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ إنه لابد لصاحب الدعوة أن يتجرد من أسناد الأرض ، وأن يستهين كذلك بأسناد الأرض ؛ إنها فى ذاتها واهية واهنة ، مهما بدت قوية قادرة ... وصاحب الدعوة إلى الله يرتكن إلى الله . فما هذه الأولياء والأسناد الأخرى إذن ؟ وما تساوى فى حسه ؛ حتى لو قدرت على أذاه ، إنما تقدر على أذاه بإذن ربه الذى يتولاه . لا عجزًا من ربه عن حمايته من أذاها ـ سبحانه وتعالى ـ ولا تخلياً منه سبحانه عن نصرة أوليائه .. ولكن ابتلاء لعباده الصالحين للتربية والتمحيص والتدريب ، واستدراجًا لعباده الطالحين للإعذار والإمهال والكيد المتين ! وعلى ذلك أمثلة كثيرة منها .

إن أبا بكر ﷺ كان يردد ، والمشركون يتناولونه بالأذى ؛ ويضربون وجهه الكريم بالنعال المخصوفة يحرفونها إلى عينيه ووجهه ، حتى تركوه وما يعرف له فم من عين ! كان يردد طوال

هذا الاعتداء المنكر الفاجر على أكرم من أقلت الأرض بعد رسول الله ﷺ : « رب ما أحلمك ! رب ما أحلمك ! رب ما أحلمك ! .... » كان يعرف فى قرارة نفسه ما وراء هذا الأذى من حلم ربه ! لقد كان واثقًا أن ربه لا يعجز عن التدمير على أعدائه ؛ كما كان واثقاً أن ربه لا يتخلى عن أوليائه !

وبعد هذا الإعلان تجىء عدة توجيهات من الله سبحانه إلى أوليائه . رسول الله ﷺ ، والذين آمنوا معه ، وهم بعد فى مكة ، فيدعو صاحب الدعوة إلى السماحة واليسر ، والأمر بالواضح من الخير الذى تعرفه فطرة البشر فى بساطتها ، بغير تعقيد ولا تشديد ، والإعراض عن الجاهلين فلا يؤاخذهم ، ولا يجادلهم ، ولا يحفل بهم .

يقول صاحب الظلال فى أمر الله لرسوله ﷺ أن يأخذ العفو ، ويأمر بالعرف : « خذ العفو الميسر الممكن من أخلاق الناس فى المعاشرة والصحبة ، ولا تطلب كل أولئك فى المعاملات الشخصية لا فى العقيدة الدينية ولا فى الواجبات الشرعية فليس فى عقيدة الإسلام ولا شريعة الله يكون التغاضى والتسامح » .

ولكن فى الأخذ والعطاء والصحبة والجوار ، وبذلك تمضى الحياة سهلة لينة ، فالإغضاء عن الضعف البشرى ، والعطف عليه والسماحة معه واجب الكبار الأقوياء تجاه الصغار الضعفاء ورسول الله ﷺ راع وهاد ومعلم ومرب ، فهو أولى الناس بالسماحة واليسر والإغضاء . وكذلك كان رسول الله ﷺ لم يغضب لنفسه قط ، فإذا كان فى دين الله لم يقم لغضبه شىء ! .. وكل أصحاب الدعوة مأمورون بما أمر به رسول الله ﷺ فالتعامل مع النفوس البشرية لهدايتها يقتضى سعة الصدر ، وسماحة طبع ، ويسرًا وتيسيرًا فى غير تهاون ولا تفريط فى دين الله .

ويقول القاسمى : بمناسبة هذه الآية أيضا يقول بعض العلماء : إن سر الشريعة فى الطباع والعادات ، هو تأييد المستحسن ومحو المستقبح . وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾ فإن المعروف ما عرفته الطباع السليمة واستحسنته ، والمنكر ما أنكرته واستقبحته، ذلك لأن غاية الشريعة راحة الخلق على حال ونظام معقولين ، فلا يصح الحكم بتوحيد العادات فى كل البلاد . أ هـ .

فإذا تجاوزوا الحد وأثاروا غضبه بالعناد والصد . ونفخ الشيطان فى هذا الغضب ، فليستعذ بالله ليهدأ ويطمئن ويصبر .

ثم يعرفه طبيعة أولئك الجاهلين ، والوسوسة التى وراءهم والتى تمدهم فى الغى والضلال، ويذكر طرفًا من سلوكهم مع رسول الله ﷺ وطلبهم الخوارق .

والسياق هنا يحكى بعض أقوالهم الدالة على جهلهم بحقيقة الرسالة وطبيعة الرسول فهم يطلبون الآيات ، وإذا لم تأتهم الآية قالوا : لولا ألححت على ربك حتى ينزلها أو هلا فعلتها أنت نفسك ؟ ألست نبيا ؟ ! ، فهم لم يكونوا يدركون طبيعة الرسول ووظيفته ، كذلك لم يكونوا يعرفون أدبه مع ربه ، وأنه يتلقى منه ما يعطيه ، ولا يقدم بين يدى ربه ولا يقترح عليه ، ولا يأتى كذلك الشىء من عند نفسه ، والله يأمره أن يبين لهم أنه ليس بمفتعل للآيات ولا يملك إلا ما يوحيه إليه ربه .

كذلك يؤمر رسول الله ﷺ أن يبين لهم ما فى هذا القرآن الذى جاءهم به، وأنه بصائر تهدى ، ورحمة تفيض لمن يؤمن به ، ويغتنم هذا الخير العميم .

يقول الإمام محمد أبو زهرة فى زهرة التفاسير : ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ هذان وصفان وصف الله تعالى آياته وأخصها القرآن ، ففيه أمران جليلان ذا شأن فى الرسالات الإلهية :

أولها : فيه هدى يهدى إلى الحق ، وإلى صراط مستقيم ، فهو يبين الهدى من الضلالة ، والنور من الظلمات بما اشتمل عليه ، وبدلالته الذاتية ، وبإعجازه ، وبأنه يهدى إلى الطيب من القول ، ويهدى إلى الصراط الحميد .

وثانيهما : إن فيه الرحمة بما اشتمل عليه من شريعة حكيمة تصلح أمور الناس ، وتذهب عنها الفساد ، فهى بما شرعت من النظم فى الأسرة ، ومعاملات بين الناس ، ومنع لأكل أموالهم بينهم بالباطل، وإن هذه الهداية وتلك الرحمة لقوم من شأنهم الإيمان؛ ولذا قال تعالى:﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فوصفهم بالجملة التى يتصدرها الفعل المضارع للدلالة على إيمانهم المستمر ، المتجدد آنابعد آن على وجه الدوام » .

يقول صاحب الظلال : « إن العبادة والذكر عنصر أساسى فى منهج الدين ، إنه منهج حركة واقعية لتغيير الواقع البشرى ، وهذا التغيير يحتاج إلى جهد طويل ، وطاقة صاحب الدعوة محدودة ، ولا قبل له بمواجهة هذه المشقة دون زاده يسمده من ربه » .

وبمناسبة هذه الإشارة إلى ما أوحاه إليه ربه من القرآن ، يجىء توجيه المؤمنين إلى أدب الاستماع لهذا القرآن ؛ وأدب ذكر الله ؛ مع التنبيه إلى مداومة هذا الذكر ، وعدم الغفلة عنه ، فإن الملائكة الذين لا يخطئون يذكرون ويسبحون ويسجدون ، فما أولى البشر الخطائين ألا يغفلوا عن الذكر والتسبيح والسجود » .

روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « من استمع إلى آية من كتاب الله ، كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة » قال ابن كثير : تفرد به الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الإسلام دينُ يسرٍ وسماحة يأمر بالتزام الأخلاق الكريمة ومن أرقاها العفو عمن ظلم وإعطاء من حرم ، وصلة من قطع .

٢ ـ وجوب الاستعاذة بالله عند الشعور بالوسوسة أو الغضب أو تزيين الباطل .

٣ ـ فضيلة التقوى هى فعل الفرائض وترك المحرمات .

٤ ـ شؤم أخوة الشياطين حيث لا يقصر صاحبها بمد الشياطين له عن الغى الذى هو الشر والفساد .

٥ ـ عدم التمادى مع الجاهلين السفهاء حتى لا ينتقص قدر الإنسان ، وإنما يعرض عنهم ولا يجاريهم فى سفاهتهم .

٦ ـ ضرورة الإنصات وحسن الاستماع إلى القرآن الكريم من غير أن يحدث ضوضاء ولا تشويشًا مع حضور القلب وتدبر آيات الله ، ودوام ذكر الله ـ تعالى ـ والإخلاص له فى العبادة .